الأصولُ النظريةِ لهندسةِ النص القرآني:
بنائيةُ الدكتور محمود البستاني أنموذجا

محمد كاظم خليف الحميداوي
د. علي رضا محمد رضايي
د. صادق فتحي دهكردي
قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة طهران، فرديس فارابي

Theoretical foundations of the engineering of the Qur'anic text :
Dr. Mahmoud Al-Bustani's constructivism as a model

Muhammad Kazem Khalif Al-Hamidawi
Dr. Ali Reza Muhammad Rezaei
Dr. Sadiq Fathi Dehkerdi
Department of Arabic Language and Literature,
University of Tehran, Fardis Farabi
Email: mohamad.313@hotmail.com

ملخص البحث

يدرس البحث، الأصول النظرية التي توكأ عليها الدكتور محمود البستاني في مقاربته البنائية للنص الأدبي عمومًا والقرآني خصوصًا، وتقيمها، وعمد إلى طرح أبرز ما يمكن أن يأتي عليها أو يدعمها، وسلط الضوء على أبرز تلك الأصول مما كان له دور ظاهر في نزوع البستاني نحو المنهج البنائي في مقاربة النصوص الأدبية، والقرآن الكريم في طليعتها، منوَّهًا بالعرض، بأثر القوانين الذهنية في رسم ملامح (التلقي) وإعادة ترتيب شكل البلاغة بما هي قاعدة للنقد، ومعرِّجًا على موقف الدكتور البستاني من مخرجات الثقافة الحديثة، وتوظيفها لفهم النص القرآني والكشف عن مكنون أسراره الجمالية والدلالية، وقد قدم البحث لذلك ببيان تصور البستاني عن النص الأدبي بمعناه العام والصفات الواجب تحلي النص بها؛ كي يكون نصًا نموذجيًّا، وثنى ببيان الخطوط العامة للرؤية البنائية التي دعا إليها البستاني وطبقها في نتاجاته التأصيلية لاسيما القرآنية منها، لينتهي إلى أنَّ أصول البستاني، تبقى ذات قيمة موضوعية حتى مع افتراض سلب اليقين عنها ، وأنَّها يمكن التعويل عليها من الناحية التطبيقية، بما تفتح من أبواب يمكن للباحث أن يلجها وينظر ما وراءها، وهذا ما نحسب أنَّ الدكتور محمود البستاني قد فعله، حين ولج هذا الطريق فقدَّم موسوعة تفسيرية على أساس منهجه البنائي، تمثل قيمة إبداعية متميزة، وتكشف بما لا لبس فيه عن حضور (الوحدة البنائية) في النص القرآني العزيز.

الكلمات المفتاحية : الأصول، النظرية، هندسة، النص القرآني، البستاني، بنائية.

Abstract

The research dealt with the theoretical principles that Dr. Mahmoud Al-Bustani relied on in his constructive approach to the literary text in general and the Qur'an in particular, and evaluated them. He intended to present the most prominent things that could come from them or support them, and shed light on the most important of those principles, which had an apparent role in Al-Bustani's inclination towards the method. The constructivist in his approach to literary texts, with the Holy Qur'an at the forefront of it, noting, by presentation, the effect of mental laws in drawing the features of (reception) and rearranging the form of rhetoric as a basis for criticism. Referring to Dr. Al-Bustani's position on the outcomes of modern culture and using them to understand the religious text and reveal its aesthetic and semantic secrets, the research presented this by explaining Al-Bustani's perception of the literary text and the qualities that the text must have; In order for it to be an exemplary text, it illustrated the general lines of the constructivist vision that Al-Bustani called for and applied in his original productions, especially the Qur'anic ones. To conclude that the origins of the gardener It remains of objective value even if it is assumed that certainty is removed from it, and that it can be berelied upon from an applied standpoint, as it opens doors that the researcher can enter and see what is behind it, and this is what we believe that Dr. Mahmoud Al-Bustani did, when he

entered this path and presented an interpretive encyclopedia on the basis of His structural approach represents a distinct creative value, and unambiguously reveals the presence of (structural unity) in the cherished Qur'anic text.

key words: Principles , Theory , geometry , the Qur'anic text , Al-Bustani , constructivism

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين وأصحابه المنتجبين.

كان القرآن الكريم وعلى الدوام، عصب حياة الدراسات الإسلامية والعربية، فهو باعث تاسيسها وسبب تطورها؛ لأنّها ما جاءت إلّا بهدف استيضاح معانيه، وفهم مراميه، والكشف عن جمالياته وأسراره، ومعرفة طبيعته وإعجازه، واستظهار قواعد التعبير وطرائق إيصال المعنى منه، فهو ابدًا النموذج الذي يتحذى، والنص الذي لا يبلى " ظاهره أنيق ، وباطنه عميق، لا تفنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه ، ولا تكشف الظلمات إلّا به"[1].

لقد تفاوت التعاطي مع النص القرآني ومر بمراحل تطور، تردد فيها بين تناول جزئي يقوم على الفهم التجزيئي لآيات الكتاب الكريم ، وآخر موضوعي يتحرى معنى موضوع محدد في سائر الآيات والسور، وثالث يفتش عن تناسب الآيات والمقاطع ويستهدف الكشف عن تلاحمها واتصالها ، ورابع يقارب النص باعتباره وحدة واحدة ، يتموضع وراءها معنى كلي، وخامس يبحث عن ذلك كله لكنه يروم بيان هندسة النص التي يقوم عليها بناؤه وتحليل مكوناته وكشف أدوات اتصاله.

تنتمي مقاربة الدكتور محمود البستاني إلى النوع الأخير الذي يستهدف تحليل البناء

(١) نهج البلاغة، محمد عبده ، ٥٥

الهندسي للنص القرآني، ويكشف تلاحم أجزائه وتمحور مكوناته حول هدف واحد وغرض فارد، وهو في ذلك يعتمد مجموعة من الأصول الكلامية والعقلية والنفسية لإضفاء المشروعية البحثية على منهجه البنائي .

ومن هنا جاءت هذه الدراسة، بهدف الكشف عن تلك الأصول سواء ما ذكره البستاني صراحة، أو ما يلوح من كلامه ويستفاد من تاصيله العملي، ومحاولة فحصها وملاحظة ما تكتنزه من قيمة موضوعية يمكن أن تكون مظلة فكرية لبحث وحدة النص القرآني خصوصًا والنص الأدبي عمومًا .

المبحث الأول : الإطار النظري(النص- البنائية)

النص لغة :

أوردت المعاجم اللغوية معاني متعددة للنص، وبحسب لسان العرب فإنَّ:" النص: رفعك الشيء، يقال: نص الحديث إلى فلان أي رفعه.. ونصت الظبية جيدها: رفعته.

ووضع على المنصة أي على غاية الفضيحة والشهرة والظهور، نصصت المتاع إذا جعلت بعضه على بعض ... وكل شيء أظهرته فقد نصصته... ونص الرجل نصا إذا سأله عن شيء حتى يستقصي ما عنده وأصل النص أقصى الشيء وغايته ... ونص كل شيء: منتهاه... قال الأزهري: النص أصله منتهى الأشياء ومبلغ أقصاه"[1]

وبلحاظ ما تقدم، يمكن حصر معاني النص لغويًّا في أربعة:

١ - الارتفاع.

٢- الإظهار.

٣ - ضم الشيء إلى الشيء.

٤ - أقصى الشيء ومنتهاه. [2]

(١) لسان العرب، ابن منظور ، ٧ / ٩٨

(٢) لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب، محمد خطابي ، ١ / ٢٨

وبالبحث عن معنى جامع تندرج تحته أشتات المعاني اللغوية، يبدو أنَّ الظهور هو المعنى العام الذي يلم شعث هذه المعاني الجزئية فإنَّ الارتفاع يلازم الظهور والانكشاف وضم الشيء الى شيء، لا ينفك عن ظهور، ومنتهى الأشياء ومبلغها، يضمر ظهورها ذاتًا وغاية.

الظاهر أنَّ الدلالة الاصطلاحية للنص، قد وجدت في ميدان علم أصول الفقه أول الأمر، فهذا العلم في أساس وضعه، استهدف تحليل خطاب الشارع وفهم مداليله عبر قواعد مستنبطة من تأمل طبيعة الخطاب، وفهم الكيفيّة التي تتولد عن طريقها الدلالة؛ ولأجل معرفة معاني النصوص واستكناه دلالاتها، تناول الأصوليون دلالات ألفاظ الخطاب من مختلف الزوايا ، وهي متابعة تلاحق اللفظ في جميع تقلباته وكافة أحواله واعتباراته "من أول وضع الواضع إلى آخر فهم السامع"[١].

ومن هنا رأينا الأصوليين يستعملون النص استعمالات مختلفة فتارة يطلقونه على الخطاب الشرعي بمعزل عن طبيعة دلالته، وأخرى ينعتون به الخطاب الواضح الدلالة مع عدم استبعاد عدم الوضوح بالمرة، وثالثة يقصرونه على الخطاب ذي الدلالة القطعية .

و قال الشافعي: "النص: كل خطاب عُلم ما أُريد به من الحكم"[٢]

وقد غيَّر القاضي عبد الجبار المعتزلي في هذا التعريف بعض الشيء حين قال: " النص: هو خطاب يمكن أن يُعرف المراد به"[٣].

وعلى المنوال نفسه سار السيد المرتضى في قوله: "اعلم أنّ النصّ هو كلّ خطاب أمكن معرفة المراد به"[٤]، وشرط تحقق الخطاب عند عامة الأصوليين، توفر قصد المخاطب في جعله خطابًا لمن قصده بخطابه ، وبالتالي يفرقون بين المعنى والمراد، فالمعنى هو المحتوى الحرفي للكلام، في حين أنَّ المراد هو الرسالة التي يبلغها المتكلم، ويقصد أن يكشفها السامع

(١) الخطاب الشرعي وطرق استثماره، إدريس حمادي ،١٨
(٢) عدة الأصول، محمد بن الحسن الطوسي، ١ / ٤٠٧.
(٣) المعتمد في أصول الفقه، أبو الحسن المعتزلي، ١/ ٢٩٤.
(٤) نفائس التأويل، السيد المرتضى، ١ / ١٦٢

لتحقيق استجابة معينة؛ لذا يفرق الباحثون المعاصرون بين الخطاب والنص ، ويحددون المعايير التي تميز النص عن اللانص ، فالنص هو المظهر الشكلي للخطاب ، بينما يعني الأخير الممارسة الفعلية الاجتماعية للنص، أي النص مقيسًا إلى ظروف إنتاجه ومحاطًا بجملة عوامل تجعله خطابًا يحقق التأثير المطلوب والتفاعل المقصود، ومن هنا نجد "بعضهم يفرق بين نص هو كائن فيزيائي منجز، و خطاب هو موطن التفاعل والوجه المتحرك منه، ويتمثل في التعبير والتأويل[١].

وعرَّف الدكتور محمود البستاني النص الأدبي قائلًا "النص الأدبي هو وحدة فنية تنتظمها مجموعة من الموضوعات والأساليب، تخضع لهكيل خاص من الصياغة "[٢]، ورغم أنَّ تعريفه هذا لا يختص بالنصوص الأدبية التقليدية؛ لأنّه يشمل القرآن الكريم أيضًا فهو بالنهاية عند البستاني نص أدبي[٣] ، بيد أنَّ التعريف يخضع لمتبنيات البستاني القبلية ورؤيته الخاص حول هندسة النص، فضلًا عن أنَّ التعريف لا يتناول النصوص العادية التي تفتقد للمواصفات التي عدَّدها مع أنَّها يصدق عليها وصف النص.

وحتى يكون النص نموذجيًا فلابد – وبحسب البستاني– أن يتصف بصفات ثلاث:

الأولى – الوحدة العضوية لمكونات النص، بحيث تتلاحم أجزائه وتتشابك في وحدة واحدة، يتكامل فيها كل جزء مع ما سبقه ولحقه من أجزاء، وترتبط أهداف النص في حال تعددها، بعضها مع بعضها الآخر" فإنَّ نجاح النص الأدبي، يتوقف على أن يكون هناك ارتباط بين هذه الأهداف المتنوَّعة بشكل من أشكال الارتباط"[٤] .

الثانية – إنَّ ذلك التجانس والالتحام، إنّما يتحقق ضمن (الكل)، ومن ثمَّ فلا بد أن يكون للنص، معنى كليٌّ أو هدفُ عامُ يريد تحقيقه، والبستاني، يشترط وجود وحدة فكرية للنص، حتى في حال تعدد موضوعاته، فلا بد من " إخضاع جميع الموضوعات لفكرة

(١) نسيج النص، الأزهر الزناد، ١٥ .
(٢) البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلامي، محمود البستاني،١٦٥ .
(٣) المصدر نفسه ،١٠ .
(٤) البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلامي، محمود البستاني ،٣٠.

واحدة "[١] بمعنى أنّه يفترض مسبَّقًا ، انطواء النص على تلك الوحدة وبعد ذلك يأتي الدور على اكتشافها.

الثالثة – أن يعتمد النص، أساليب محددة تاخذ بنظر الاعتبار قوانين الاستجابة الذهنية، لدى المتلقي بحيث تجعله محتفظًا بالانطباع العام الذي تخلفه قراءة النص، سواء كانت مقاربته للنص واعية أو غير واعية[٢].

البِنْيَة في اللغة :

بنية الشيء " الهيئة التي بني عليها "[٣] ، " و البنية ما بنيته وهو البنى و البنى ، وأنشد الفارسي عن أبي الحسن : أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنى"[٤].

والمتحصل من تتبع استعمالات (بنى – بنيان) وأمثالها " أنّ الأصل الواحد في هذه المادّة: هو ضمّ أجزاء و موادّ بعضها الى بعض ليتحصّل بناء على هيئة مخصوصة، مادّية أو معنويّة "[٥].

المعنى الاصطلاحي :

البنائية عبارة عن منهج نسقي داخلي ، يدرس النص من الداخل وينظر إليه على أساس أنّه وحدة متصلة، ومنظومة علاقات متشابكة ، تتلاحم فيها أجزاء النص وتتشابك حتى تكون كالبنيان، وفي حالات كثيرة، تنتهج البنائية ، مقاربة كلية للنص، تعنى بدراسة السورة أو السور القرآنية باعتبارهما كُلًّا ووحدةً واحدة ، متصلة العناصر، مترابطة الأجزاء، تنطوي على غرض اساسي وفكرة رئيسة تمثل المعنى الكلي للنص .

سماها طه جابر العلواني بـ (الوحدة البنائية)، وأراد منها البناء العام لآيات السورة الواحدة ، وبحسبه فبنائية القرآن الكريم، تعني : " أنّه بكل سوره وآياته وأجزائه وأحزابه

(١) القواعد البلاغية ، محمود البستاني، ٣١٥.
(٢) ينظر، المنهج البنائي في التفسير، محمود البستاني ،١٥.
(٣) لسان العرب، ابن منظور،٩٤.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن مصطفوي، ٣٤٤.

وكلماته يعتبر كأنه جملة واحدة [١]" .

وهو تعريف ينطوي على عمومية ، تضيع معها ملامح (البنائية) ولا يعكس طبيعة التسمية وسر انتقاء هذا الاصطلاح دون غيره.

وفي ذات السياق عبر عنها محمود البستاني بـ (عمارة السورة) ، وسبب التسمية عنده، يرجع الى اعتقاده بأنَّ بناء السورة القرآنية من حيث كونها هيكلًا عضويًا، يتماثل في وظيفته مع العمارة الخاضعة لهندسة خاصة ، أو الجهاز الجسمي في تواشج أعضائه بعضها مع الآخر.

ومن هنا عرَّف المنهج البنائي بأنه: "دراسة النص القرآني عن طريق (السورة) بضمنها (وحدة) لغويّة لها بناؤها الخاص المتمثل في نص تترابط آياته وموضوعاته وعناصره وأدواته بعضها مع الآخر"[٢]، وعليه تكون وظيفة المنهج البنائي، الكشف عن ذلك البناء، عبر تحليل موضوعات السورة والكشف عن صلتها، بعضها مع بعضها الآخر، وصلة أولئك جميعًا بالعناصر الأخرى: كالصورة والإيقاع والحوار والقصة... الخ[٣]

والسمة الواضحة في (الرؤية البنائية) عند البستاني، هو أنَّ التعامل مع النص، يتم على أساس كونه بناء مكتفيًا بذاته، ومنطويًا على قوانين داخلية تنظم أجزاءه وعناصره وأدواته، ولا يصار إلى الاستعانة بخارج النص إلّا بالمقدار الذي يتطلبه سياق الموضوع الذي يطرحه النص، وبخلاف ذلك يظل التعامل مع النص، وفق قوانينه الداخلية هو المحور الأصل، ويعلل البستاني ذلك ، بوظيفة النص وهدفه الرئيس في إيصال مبادئه إلى المتلقين، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، ثمَّ " فإنَّ التعامل مع الدلالة وطريقة توظيفها الفني، تفرض على الممارس ان يحصر ذلك في نطاق الدلالة ذاتها وتوظيف، أدواتها دون الحاجة إلى سلطة خارجية إلّا في حدود الاضاءة التي يتطلبها الموقف [٤]"

(١) الوحدة البنائية للقرآن المجيد، طه جابر العلواني ، ١٣ .
(٢) المنهج البنائي في التفسير، محمود البستاني، ١٣ .
(٣) ينظر، الفهم المتجدد لآيات الكتاب المجيد في ضوء منهج التفسير البنائي، حوار مع، د. محمود البستاني، (١٤/ ٨/ ٢٠٠٩م. استرجعت في ٨ / ٢٠٢٣ من،
http//www.uofislam.net/uofislam/view.php?type=c_book&id=(1927
(٤) التفسير البنائي، حوار مع الدكتور محمود البستاني، قضايا إسلامية معاصرة، العدد الرابع ،٥٧.

يحلل البستاني، حمولات النص الأدبي[1] وفق خطوات، تفضي بالنهاية إلى ظهوره بمظهر الشبكة الدلالية التي تلتقي عندها الدلالات الجزئية، فالنص الأدبي: مجموعة من (الموضوعات) التي تتضمّن فكرة أو (هدفا)، وهذه الموضوعات و الأهداف تشتمل على فروع أو أجزاء أو أقسام، مرتبة وفق تخطيط هندسي بحيث إذا غيرنا مكان واحد منها، و وضعناه مكان الآخر أو حذفناه، أو قدّمنا أو أخرنا بعضًا منها عن الآخر، يحدث (خلل) في موضوع الحادثة و فكرتها.

إنَّ هذا أمر يتناسب مع روح البنائية عند البستاني، والمنهج (المعماري) في تناول النص من حيث كونه، هيكلًا عضويًّا، يتماثل في وظيفته، مع (العمارة) الخاضعة لهندسة خاصة.

إنَّ ترابط (الأجزاء) أو (الأقسام) فيما بينها، وتناسق كل واحد منها مع الآخر، تفضي بمجموعها إلى تحقيق الغرض الفكري الذي تستهدفه السورة، ووفقًا لهذا التصور الذي يقدمه البستاني، فإنَّ ثمة وحدة عضوية، تتشابك عبرها أجزاء الصورة ؛ لتتكامل بالنهاية، وحدة دلالية تستوعب الروافد الجزئية كافة، وهذا التشابك الدلالي، هو نتاج الغرض الكلي الذي يريد النص إيصاله إلى المتلقي..

إنَّ التلاحم والتشابك بين الأجزاء - بحسب البستاني- يفرض عدم النظر لكل (جزء) منفصلًا ، عن علاقته بالأجزاء الأخرى، و علاقة هذه الأجزاء جميعاً بـ (وحدة) الفكرة و الموضوع ؛ لأنّ النظر إلى كل جزء على حدة ، يجعل النص فاقدًا، وحدته الفكرية و الموضوعية التي يستهدفها، ومعنى ذلك أنّ وجود الجزء بشقه الدلالي، رهن في كونه جزءًا ضمن (كل) وأنّ الجزء قد ينطوي على معنى في نفسه، لكن هذا المعنى لا يشكل جزءًا من المعنى العام الذي يهدف النص، تحقيقه .

نعم، يمكننا (من أجل الدراسة فحسب) أن نفصل (الجزء) عن (وحدة) النص، و لكن بشرط أن نربطه بعد ذلك بتلك الوحدة .

يمكننا من تتبع تحليلات الوحدة البنائية في النص القرآني، أن نميز بين مستويين:

(١) ينظر، القواعد البلاغية في ضوء المنهج الإسلامي، محمود البستاني، ٣١٢.

الأول: المستوى الجوهري، ويتقوم بالترابط بين أجزاء النص وتلاحمها، وبالمعنى الكلي الذي يستهدف النص تحقيقه، إذ يكون فيها الكل أكبر من مجموع الأجزاء، والأول أي الترابط النصي محل وفاق بين المؤمنين بالوحدة القرآنية منذ بواكير ظهورها، فيما مرَّ الثاني أي الإيمان المعنى الكلي القابع وراء ترابط الأجزاء بتطور ومراحل حتى اشتد عوده واكتملت شخصيته، وهو ما ستأتي الإشارة إليه في معرض تناول جهود دارسي القرآن في تجلية الوحدة بما تنطوي عليه من ترابط وغرض رئيس للنص القرآني.

الثاني: المستوى العرضي، وهذا المستوى يتعلق بالجانب الشكلي للنص، والمبادئ والطرائق التي يتبعها المفسر وقارئ النص في تجلية الوحدة الكلية للنص، تدخل في ذلك، العناصر اللغوية ، وطريقة صياغاتها ، وسائر العناصر الثانوية بحسب محمود البستاني[1] التي توظف لتحقيق البناء النصي أو إنارة هدفه.

ترتب على هذ اختلاف المقاربة الكلية للنص، نتيجة اختلاف مبادئها وطرائقها ومنهج تحقيقها بحسب كل مفسّر ، ثمَّ اختلفت تسميتها عند المحدثين فترددت بين (موضوعية، ونسقية، وعضوية ، وبنائية ...الخ) ؛ لاختلافهم في المستوى الثاني، دون الأول، إذ إنَّ المستوى الأول يمثل جوهر المقاربة الكلية بنائية كان اسمها أو غيره ، وبدونها تفقد المقاربة حقيقتها بفقدان ترابط الأجزاء وغياب المعنى الكلي.

بالالتفات إلى ما مر فإننا يمكن أن نعثر في نتاجات المتقدمين على ما يشي بالوحدة البنائية للقرآن الكريم (وان لم يسموها بهذا الاسم) سواء كان ذلك في تصريحاتهم ، أو في تطبيقاتهم العملية أثناء تناولهم النص القرآني، مادام أنَّ قوام هذه النظرية يتلخص في ترابط الأجزاء والنظرة الكلية للنص.

يذهب الجويني إلى أنَّ الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) ، هو أول من أشار إلى الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم؛ لأنَّ الجاحظ كان يتناول موضوعا في وحدة متكاملة، وفي نسقها التاريخي، ومثل لذلك بتناوله لجملة من الموضوعات في القرآن الكريم من بينها (النار) ثم

(١) ينظر، محمود البستاني، المنهج البنائي في التفسير، ٢٠.

قال الجويني: "حقا لم يطبق الجاحظ منهج التفسير الموضوعي بتفصيلاته كما تفهمه اليوم، ولكن على كل حال هو مدرك لأصل الفكرة، وهو أن يكون الموضوع القرآني في نسق تاريخي متكامل"[١].

وهذا التقريب لجهد الجاحظ وإن كان يندرج تحت عنوان المقاربة الكلية للنص القرآني من بعض الوجوه ، بيد أنَّه لا يتصل بالوحدة الكلية للسورة او السور القرآنية تمام الصلة مثلما هو مؤدى الوحدة البنائية؛ لأنَّ تلك المحاولة تندرج تحت عنوان التفسير الموضوعي بما هو تجميع لآيات من سور شتى، تتمحور حول موضوع واحد، لكنها تكشف على أي حال عن حضور التعاطي الكلي مع القرآن الكريم وفي مرحلة تأريخية متقدمة.

وهذا الأمر بعينه، نجده في الحقل الفقهي وفي كتب تفسير آيات الأحكام تحديدًا، ولعل أقدمها ممن اتجه اتجاهًا موضوعيًا: فقه القرآن للقطب الراونديّ (ت ٥٧٣هـ) ، بالنظر إلى أنَّ المنهج المتبع في تفسير آيات الأحكام، يتقوم ببحث المفسر موضوعًا واحدًا، يحاول عن طريق ذلك استخلاص موقف قرآني عام ورؤية كليَّة حول الموضوع الفقهي المبحوث عنه.

تمثل دراسة القاضي أبي بكر الباقلاني (٣٣٨ هـ - ٤٠٣ هـ) في كتابه إعجاز القرآن، نموذجًا متطورًا بلحاظ مرحلته التأريخية للدراسات الكلية التي تؤكد على وحدة السورة ، واتصال أجزائها وبيان موضوعها الرئيس، فقد قال وهو في صدد الحديث عن السور التي تبدأ بحروف مقطعة: "وكثير من هذه السور إذا تأملته فهو من أوله إلى آخره مبني على لزوم حجة القرآن، والتنبيه على وجه معجزاته"[٢]

اعتنى الباقلاني بالنظم القرآني، فكان ينظر إلى النص باعتباره وحدة متكاملة تنطوي على خصائص النظم ، ويظهر فيها التناسق الفريد "إذا تفكرت في كلمة كلمة مما نقلناه إليك، وعرضناه عليك، ثم فيما ينتظم من الكلمات، ثم إلى أن يتكامل فصلًا وقصة، أو يتم حديثا وسورة لا، بل فكر في جميع القرآن على هذا الترتيب، وتدبره على نحو هذا التنزيل

(١) جهود محمد عبد الله دراز في التفسير الموضوعي، محي الدين بن عمار،١١٤.
(٢) إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني، ٩.

فلم ندع ما ادعيناه لبعضه، ولم نصف ما وصفنا إلّا في كله "[١].

لقد أولى الباقلاني القصص القرآني، عناية واضحة ، فعلل نظم الآيات وتناسقها في قصص القرآن بما يكشف عن وحدة عضوية بين آيات السورة تسري عبرها روح تجعل الكلام يمسك بعضه ببعض، فتنتج عنه وحدة تركيب بين أجزاء السورة ، "وهذا الترابط بين أجزاء السورة ترابط يتضح فيه اتصال المتأخر بالمتقدم ، وعلى هذا نستطيع أن نقول بأنّ النظم بين التناسق والترابط بين أجزاء القطعة الفنية الواحدة باعتبارها كلاما لا تتقطع أوصاله كتقطع القصيدة إلى أبيات ينفصل بعضها عن بعض ، وإنما تتلاحم تلاحما يشهد بقدرة المبدع حتى لا تتضاءل الصور الجزئية في الأثر الفني ... "[٢]

ولا بد من التنويه بأنَّ ثمة شكوك جديَّة، تحوم حول صحة نسبة (إعجاز القرآن) إلى الباقلاني.[٣]

ومع ذلك فيكفينا الآن أنَّ باحثًا مجهولًا ينتمي إلى تلك الحقبة التأريخية، قد تبنى مقاربة القرآن الكريم بالمواصفات المتقدمة.

وفي السياق ذاته، يمكن تلمس وحدة السورة عند أبي علي الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسيره مجمع البيان والذي يظهر منه في مواضع متعددة ، أنَّ الطبرسي كان يتعاطى مع القرآن الكريم على أساس أنَّه نسيج وحدة متصلة ، وأنَّ آياته عبارة عن وحدات متشابكة ومترابطة فيما بينها داخليا، يأخذ بعضها بتلابيب بعضها الآخر ، وفي أحيان كثيرة ينتج الترابط بين الآيات أو السور، وحدة محورية تمثل عنوانًا عامًا تجتمع حولها آيات من سورة واحدة أو سور متفرقة ، تكون معه الوحدة الاتصالية السالفة هي الأصل ما عداها استثناء؛ لأنَّ: "حمل الكلام على الاتصال أولى إذا لم يخل بالمعنى. "[٤]

(١) اعجاز القرآن ، ٢٠٢.
(٢) الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية، محمود السيد حسن مصطفى، ٦٩.
(٣) ينظر في هذا الصدد، إعجاز القرآن آيا نوشته أبو بكر باقلاني است- حسن أنصاري استرجعت في تاريخ ١٨ / ١/ ٢٠٢٣ من، https//ansari.kateban.com/post/5101
(٤) مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، ٣ / ١٦٧.

يشير الطبرسي إلى أنَّ بعض السور القرآنية، تبدأ بالحديث عن شيء ثم تفصل في موضوعات شتى، قد تكون واضحة الارتباط بالموضوع الذي بدأت به ، ولعل الرابطة في ذلك تكون خفية لكنها وفي الحالتين، تعود وتختم بما ابتدأت به أولًا، وختمها هذا قد يكون في وسطها ، أو ما زاد على ذلك بقليل، وقد يكون في خاتمة نفسها السورة.

وارتباط أول السورة بوسطها وآخرها يعتمد عند الطبرسي على وحدة الموضوع الذي يشكل عامل اتصال بين المطلع والختام ومابينهما ، ويمثل محورًا كليًّا تدور مقاطع السورة حوله، فنجده يقول عن بعض آيات سورة الأحزاب "لما صدر سبحانه هذه السورة بذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقرر في أثناء السورة ذكر تعظيمه، ختم ذلك بالتعظيم الذي ليس يقاربه تعظيم، ولا يدانيه فقال: إنَّ الله وملائكته يصلون على النبي"[1].

ويُعدّ عمل براهيم بن عمر البقاعي (ت٨٠٩ هـ)، في كتابيه (مصاعد النظر للإشراف علي مقاصد السور ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور) خطوة متطورة جدًا قياسًا إلى نتاجات من سبقه من المشتغلين في الحقل التفسيري، فقد بنى كتابيه على تتبع الروابط والمناسبات بين الآيات والسور، وبحث عن الأفكار الرئيسة التي تضمنتها السور، وهو بذلك يكون قد نقل البحث الترابطي من المنهج التجزيئي القائم في مجمله على دراسة التناسب بين الآيات والسور دون البحث عن الهدف العام ، أو الغرض الرئيس الذي ينتظم السورة كلها إلى المنهج الكلي الباحث عن ذلك كله، ومن رأيه : " أنَّ كل سورة لها مقصد واحد يدار عليه أولها وآخرها، ويستدل عليه فيها"[2]، واليه يعزى إنشاء "علم مقاصد السور" وموضوعه البحث في السورة من جهة مقصدها وفق رؤية كلية[3].

فقد تبنى البقاعي، فكرة الترابط بين اسم السورة ومقصودها، فهو يذهب إلى أنَّ عنوان النص، كاشف عن هدفه وبالتبع عن شبكة العلاقات الناظمة لأجزائه من مثل قوله : "من عرف المراد من اسم السور عرف مقصودها، ومن حقق المقصود منها، عرف

(١) منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ٨ / ١٧٩.
(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور برهان الدين البقاعي، ١ / ١٤٩
(٣) ينظر، منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، دراسة نقدية، سامر عبد الرحمن رشواني،٢٧٢.

تناسب آيها، وقصصها، وجميع أجزائها"[1]، والقاعدة الكلية عنده في تحديد الفكرة الرئيسة للنص، تتلخص بما نقله عن بعض أساتذته وطبقها فعلا في تفسيره، ونصها ، هو أنَّ: "الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سبقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات ، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام ، واللوازم التابعة له التي تقتضي البلاغة شفاء العليل يدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، وإذا فعلته تبين لك إن شاء الله وجه النظم مفصلا بين كل آية وآية في كل سورة سورة والله الهادي"[2].

والأمثلة في هذا الصدد كثيرة عند المتقدمين.

المبحث الثاني : الأصول النظرية لبنائية الدكتور محمود البستاني.

لعل مقاربة الدكتور محمود البستاني البنائية، تكاد تكون الوحيدة من بين المقاربات الموضوعية التي تتكئ على تأصيل نظري، يتميز بالشمولية والاستيعاب ، وقد عبر البستاني عن هذا التأصيل بـ (المنهج البنائي في التفسير) وكرر جملة من مطالبه في إصداراته الأدبية والبلاغية والتفسيرية، يأتي هذا على خلاف الأغلبية الساحقة ممن اشتغلوا ببيان الوحدة العضوية في النص القرآني، إذ لم يقدموا لمحاولاتهم تلك، تنظيرًا يستوعب تفاصيل عملهم ويشكل مظلة معرفية له، اللهم إلّا محاولات متناثرة هنا ، أو هناك جاءت غالبًا في ثنايا عملهم التفسيري.

إنَّ البستاني بعمله التنظيري هذا، يكون قد أخرج قرَّاءه من دائرة الحدس والظنون في معرفة ملامح منهجه، إلى اليقين بمتبنيات مسلكه ومرتكزات مقاربته، وكيفما كان، يمكن ذكر أهم الأصول النظرية التي تؤكا عليها الدكتور محمود البستاني لشرعنة مقاربته البنائية:

(١) منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ٢٧٢.
(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، ١ / ١٨.

الأول – الأصل الكلامي.

يمكن تسمية الأصل الأول الذي أفضى بالدكتور البستاني إلى تبني النظرية البنائية في مقاربته للقرآن الكريم بالأصل الكلامي؛ لاعتماده مفاهيم لها نوع اتصال بالمفاهيم الدينية وإن لم تكن تلك الصلة شديدة الى الحد الذي نجد فيه آية أو رواية، تدعمها أو تضفي عليها المشروعية بشكل حاسم ، ولكن مع ذلك فالبستاني في هذا الأصل، يحاول تحليل بعض الخطوات التي قد تكون أساسًا لرؤيته البنائية .

وهذا الأصل يرجع إلى انتظام القرآن الكريم في سور محددة العدد (١١٤) سورة، ومن الواضح أنَّ الحديث هنا ليس عن السور القرآنية بعد ترتيبها في المصحف، بل عن نفس كون السورمائة و أربع عشرة .

وقد جعل الدكتور محمود البستاني، انتظام القرآن الكريم في وحدة لغوية خاصة، هي السورة بما ضمن للآيات، الانتظام وعدم التشتت، أول ملاحظة، ينبغي الانتباه إليها، لكن المؤسف وبحسب البستاني " أنَّ الغالبية تغفل عن إثارة السؤال المتقدم... وحتى في حالة إثارة من مثل هذا السؤال، فذاك منحصر في الإشارة إلى المناخ العام للسورة لا سببية ذلك ... هذه الفجوة أو الشرخ الذي نلاحظه في الدراسات القرآنية يحمل الباحث على محاولة تلافيه ، وهو ما يضطلع به المنحى البنائي في الدراسة"[1].

إنَّ الانتظام السالف وبحسب ما نفهمه من الدكتور البستاني، يضمر ثلاثة أمور:

الأول : أنَّ كل سورة لها شخصيتها المستقلة التي تميزت بها عن غيرها، وهو أمر أفضى إلى تعدد السور واستقلال كل سورة في نفسها وعدم توقفها على غيرها.

الثاني : أنَّ مكونات السورة لها نوع من وحدة التأليف والارتباط فيما بينها ؛ لأنّه وما دامت السورة مستقلة عن غيرها ومنطوية على موضوعات محددة، فهذا يعني أنَّ تلك

(١) الفهم المتجدد لآيات الكتاب المجيد في ضوء منهج التفسير البنائي، حوار مع، د. محمود البستاني، (١٤/ ٨/ ٢٠٠٩م). استرجعت في تاريخ ٨ / ١/ ٢٠٢٣ من،
https//www.ruqayah.net/subject.php?id=682

الموضوعات لها نوع ارتباط فيما بينها وإلّا لما استقلت سورة عن أخرى، ولا اختصت سورة بموضوعات محددة دون عن غيرها.

الثالث : أنَّ العناصر التي تنطوي عليها السورة وفي مجملها، تختص بها ولا تمتد إلى غيرها، وحتى مع تكرر عنصر في غيرها من السور، فهو يتكرر في سياق آخر مختلف تمامًا عن سابقه.

وكل واحد من الأمور من الثلاثة، يتلائم مع المعنى اللغوي للسورة، فهي تعني " كل منزلة من البناء، ومنه سورة القرآن؛ لأنّها منزلة بعد منزلةٍ مقطوعة عن الأخرى "[١] ، ويتماشى مع تحديد القرآن للسورة وفي اكثر من آية : " سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون "[٢] ، وقوله تعالى : " وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صدقين "[٣]، فضلاً عن أنَّ القرآن الكريم قد تحدى من يشكك في ربانيته، بأن يأتي بسورة من مثله لا بآياتٍ سواء كانت من سورة واحدة أو سور متفرقة، ولا يوجد سبب متعقل وراء ذلك ألا مقتضيات النظم ، ومن هنا قيل: " ولسر النظم القرآني كان التحدي بالسورة وإن كانت قصيرة دون الآيات وإن كانت ذوات عدد[٤]".

والنتيجة، هي أنَّه لو كانت السورة مجرد آيات مجموعة بلا رابط بينها ولا نظم يجمعها، ولم تكن لها شخصية مستقلة وراء شخصية آياتها، لصح أن يتم التحدي بمجموعة من الآيات، تمامًا مثل التحدي بالسورة و " لكن لم يرد التحدّي في أي موضع من القرآن بآية أو آيات؛ لذلك فمن الواضح أنَّ للسورة هوية منفصلة عن هوية الآيات، وأنّ ترتيب الآيات في السورة والبناء الهادف فيها يمنحان السورة هوية جديدة ؛ بحيث إنّ البشر لا يقدرون

(١) لسان العرب، ابن منظور ، ٤ / ٣٨٦.
(٢) المؤمنون، الآية : ١٠٥.
(٣) البقرة، الآية : ٢٣.
(٤) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، شرف الدين الطيبي، ٥ / ٥٤.

على منافستها."[١] .

يضيف الدكتور البستاني، إنَّ النبي –صلى الله عليه وآله وسلم – كان يأمر بوضع الآية الفلانية في الموضع الفلاني، وهذا الأمر، لا بد أن ينطوي وبحسب البستاني على أسرار[٢]، فليس هو فعل عبثي، ليس لانَّ المسلَّمة الدينية القاضية بحمل أفعال النبي –صلى الله عليه واله وسلم– على الحكمة ، تفرض ذلك وحسب بل؛ لأنَّ الصفة العقلائية، تفضي بنا إلى النتيجة نفسها، فالعقلاء بما هم عقلاء، لا يقومون بتصرفات لا تقبع وراءها حكمة وهدف، ثمَّ يتعين علينا، فهم المغزى من ترتيب السور بهذه الطريقة والعدد، وتمايز بعضها عن بعضها الآخر من السور عبر اختصاص كل واحدة منها بموضوعات محددة.

وبكلمة أخرى: إنَّ القرآن قد مرَّ بمرحلتين: مرحلة التنزيل ومرحلة الترتيب، ولئن كانت مرحلة التنزيل قد راعت الوقائع والأحداث التي مر بها المجتمع آنذاك، وهي أحداث قد لا تكون مترابطة ولا يجمع بينها جامع، ومن هنا فالنظم القرآني الذي جاء لمعالجة تلك الأحداث غير المترابطة ، ليس من الضروري أن يكون مترابطًا وذا وحدة اتصالية، لكن الأمر على خلاف ذلك في مرحلة الترتيب التي اضطلع بها النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – حيث إنَّ الظاهر من التأريخ أنَّ الترتيب النبوي، لم يكن على وفق تنزيل الآيات، ومن ثمَّ علينا أن نتساءل : هل ثمة علاقة بين الآيات التي وُضِعَتْ متجاورةً مع بعضها في سورة واحدة، بررت وضع هذه الآية جوار آية دون أخرى ؟

وليس أمر التحديد المتقدم وحده، هو من أوحى للدكتور البستاني بموضوعة بنائية السورة القرآنية، فإنَّ موضوعات السورة نفسها، تعزز الذهاب بهذا الاتجاه[٣]، فهذه الموضوعات قد تتكرر في سورة ثانية ، بيد أنَّها تطرح في سياق مختلف، مما يجعل تلك الموضوعات، تختص ووفقًا لسياقها، بالسورة التي وردت فيها حتى وإن تكررت بنفسها في سورة أخرى، بعد أن نعرف مدخلية السياق في إنتاج تأويل مختلف لموضوع واحد .

(١) التدبر الترتيبي في القرآن، محمد حسين إلهي زاده،٩٥.
(٢) ينظر، محمود البستاني، المنهج البنائي في التفسير، ١٤.
(٣) ينظر، المصدر نفسه، ١٤.

والنتيجة هي أنَّ كل هذه الأمور، ليس لها إلا تفسير واحد، هو أنَّ آيات السورة الواحدة، تمثل شبكة متصلة فيما بينها، وأن ثمة وحدة بنائية تحكمها، فتجعلها مستقلة عن غيرها ومترابطة فيما بينها .

الثاني – الأصل العقلي

وهذا الأصل ليس عقليًا خالصًا مثلما يتردد في بعض الكتابات، بل هو نتاج المقايسات العقلية الثانوية، أي أنَّه أساس عقلائي ناتج من استقراء طريقة العقلاء في التواصل الخطابي، أو من تحليل قانون الخطاب العام .

وكيفما كان فهذا الأصل، يمكن تقريبة بعدة تقريبات :

التقريب الأول : إنَّ النظرية البنائية، وبما تفرزه من وحدة عضوية، لا بد أن تنطوي على نَظم مثلما تقدم الحديث عن ذلك في الفصل الثاني، ثمَّ فإنّ خلو الكلام من النظم، يعد بنظر العقلاء، نقصًا واضحًا وخللًا فاضحًا، حتى في الكلام العادي فما بالك إذا كان هذا الكلام كلامًا إلهيًّا؟

إنَّ التجربة المعيشة والسيرة المتبعة، تثبتان أنَّ انعدام النظم وغياب التناسب بين أجزاء الكلام، يمثل عيبًا في الوحدة الخطابية، وهو أمر ترفضه طبيعة اللغة ووظيفتها التواصلية، ومهمتها الأصل في نقل الأفكار وبيانها وهي غاية وجودها.

ولعل الدكتور محمود البستاني، ألمح إلى ما مرَّ حين قال : "فإذا كان النص الأدبي مطروحاً بشكل عشوائي، فإن الغرض الفكري الذي يستهدفه النص، سوف لن يتحقّق بالشكل المطلوب "[1] .

التقريب الثاني : الأصل هو الاتصال ، وليس الِانْقِطاعِ .

إنَّ تفكيك بنية الخطاب العام، يفرز مسلَّمة ، ينبغي الحفاظ عليها أثناء تمثل الوظيفة الاتصالية للغة، حاصلها: "اتصال الكلام مهما أمكن خير من قطعه " بمعنى أنَّ الوحدة

(١) البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلامي، محمود البستاني،١٦٨.

والاتصال بين مكونات النص بالقدر الذي يساعد عليه المعنى، فلا تقع قطيعة أوتنافر بين معاني النص، هو الأصل وما عداه استثناء.

وهذا الأصل قد عرفه المتقدمون، وجعلوه أحد ركائز استكشاف الخطاب القرآني، وعللوا سبب ذلك، إمَّا بالحفاظ على تناسق النص والحيلولة دون تنافر مكوناته ؛ لذلك قال الطوسي : " حمل الكلام على الاتصال إذا صح المعنى أولى من حمله على الانفصال؛ لأنَّ الاتصال أقرب إلى التشاكل، وأبعد من التنافر "[١]، أو كون الاتصال مما يضفي على الكلام حسنًا فإنَّ" من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض، لئلا يكون منقطعا "[٢]

إنَّ هذا الأمر، يبدو واضحًا من البستاني، وبالتركيز عليه، فهو يعد الاتصال الدلالي من علائم جودة النص وحسنها، فالنصوص الناجحة بنظره، هي تلك النصوص " المراعية لمبادئ التماسك، متمثلة في مراعاة النقطة التي تبدأ رحلة النص منها، ثم في (تناميها) أو (تجانسها)، أو تداعياتها)، أو (سببيتها المنطقية)، أو سائر الخيوط ،أو الأسلاك التي تنظم شبكة النص من حيث بطانته الفكرية وموضوعاتها وعناصرها الصورية والإيقاعية و..و..، حيث تتأثر جميعًا في توهيج الدلالة المستهدفة "[٣]

التقريب الثالث : إنّ نصوص القرآن الكريم متّسمة بالكمال الفنّي وتُعدّ النموذج الأرفع للنصوص المتفرّدة الخالدة، حيث يمكننا أن نلحظ فيها سمة العصر الذي وردت فيه " كالنثر المقفّى مثلًا، يوم كان السجع هو اللغة المسيطرة آنئذ "، وأن نلحظ فيها من جانب ثان سمة اللّغة المشتركة بين الأجيال كلّها " كالنثر المرسل، وإحكام العبارة..." وأن نلحظ فيها من جانب ثالث سمة (التفرّد) أو الإعجاز ، أو الكمال الفنّي الذي يتخطّى العصور[٤]، وهذا أمر تفرضه ربانية هذا الكتاب العزيز وعموم التحدي الذي واجه به البشرية :

(١) التبيان في تفسير القرآن، محمد بن الحسن الطوسي، ٢، ٤٠٢.
(٢) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد الزركشي، ١، ٣٦.
(٣) ينظر، الفهم المتجدد لآيات الكتاب المجيد في ضوء منهج التفسير البنائي، حوار مع، د. محمود البستاني،. استرجع في تاريخ ٨ / ١/ ٢٠٢٣ من،
https//www.ruqayah.net/subject.php?id=682
(٤) ينظر، القواعد البلاغية في ضوء المنهج الإسلامي، محمود البستاني،١٧.

(أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين)[١]

إن التحدّي في عمومه الذي عبرت عنه آيات كثيرة، عابر لحدود الزمان والمكان، فهو يشمل كلّ الأمم ، و كلّ أدوار التأريخ، سواء العرب و غيرهم، و سواء من كان في عهد الرسالة أم في عهود متأخرة حتى الأبد، فاللفظ عامّ والخطاب شامل[٢] .

وهذه المسلَّمة تقتضي أن تكون نصوص القرآن الكريم، بما هي نصوص إعجازية ومتخطية للزمان، متماشية مع سائر التطورات التي شهدتها العصور الأدبية لا سيما المعايير الحديثة منها[٣] ، وغير خافٍ أنَّ الوحدة العضوية للنص وكلية معناه، هي أحدث حركة تطور، يعيشها الأدب الحديث، فـ" النصّ الأدبيّ لا تنحصر جماليّته في فقرات أو آيات مستقلّة، بل في كونه جُملًا أو آيات يرتبط بعضها مع الاخر، ويخضع لهندسة خاصّة من حيث تنسيق الأفكار والمواقف"[٤] ، مما يعني أنّ نصوص القرآن ينبغي أن تكون، جامعة للخصلتين، ومشتملة على الميزتين.

وفي النهاية ليس في هذا الأمر، إخضاع لنصوص القرآن لمقتضيات التطور الأدبي، بقدر ما أنَّ هذا التطور وبما توافرت لأهله من إمكانات علمية وثقافية وأدبية ، قد كشف لنا عن جوانب فريدة في النظم القرآني، ظلت خافية على النقاد طيلة قرون من الزمان .

الثالث : التحليل الذهني

يتلخص هذا الأصل بما أسماه الدكتور البستاني بـ(الإدراك – الاستجابة – التلقي)، وبحسب البستاني فإنَّ طبيعة الإستجابة لما حولنا من الأشياء، تكشف عن أنَّ تركيبتنا الإدراكية ، قائمة على تلقي الأشياء عبر (الكلّ) وليس من (الجزء) المنفصل عن كله " فالكون نفسه خاضع لنظام خاص يتألف من جزئيات يتناغم بعضها مع الآخر ضمن (الكل)، أو (الوحدة) التي تنتظم هذه الجزئيات وعملية إدراكنا للأشياء تتم وفق الآلية

(١) سورة يونس، الآية، ٣٨.
(٢) ينظر، التمهيد في علوم القرآن، محمد هادي معرفت، ٤ / ٢٤.
(٣) ينظر، محاضرات في علوم القرآن، محمود البستاني،١٦٢.
(٤) القواعد البلاغية، محمود البستاني، ١٤.

المذكورة نفسها، فنحن حينما نمارس قراءة النص، ونفتح صفحة من الكتاب لا نفصل بين مادة الحروف وتركيبها ولا بين السطور ، وكلماته بل نقرؤها عن طريق (الكل) الذي يضمّ الحروف والكلمات والسطور"[١]

وهذا الأصل، يعده البستاني من الواضحات، ووضوحه، يأتي من أكثر من مصدر:

الأول : إنَّه تجربة حياتية معيشة ، ينتهجها الإنسان ولو بشكل غير واع في تواصله مع الظواهر من حوله، فهو حين يقارب ظاهرة معينة ، لا يفصل بين جزئياتها ويلاحظها ثم يخلص إلى الظاهرة بمجموعها بل يقاربها مقاربة كلية بمعنى أنَّه ينظر إلى الظاهرة ، بما هي كلٌ تندك فيه أجزاؤه " فأنت حين تقرأ صفحة من الكتاب أو تلحظ مشهدًا طبيعيًا لا تفصل بين مادة الحروف وهيأتها ولا بين السطور وكلماتها، بل تقرؤها عبر (الكل) الّذي يضم الحروف والكلمات ... والسطور [٢]" .

ولعل من الشواهد التي تعزز الفكرة أعلاه، هو أنَّ أي خلل يقع في جزء من مجموع ظاهرة مدركة، يترك أثرًا سلبيًا في عملية التلقي ككل ، فالكلمة المحذوفة أو السطر المشوه ، أو غيرها من عيوب، يصادف وجودها في صفحة كتاب، تؤثر تأثيرًا سلبيًّا على قارئ تلك الصفحة ، على مستوى التلقي الجمالي أو الدلالي، وهو تأثير لا تقتصر مساحته على السطر نفسه بل تشمل النص الذي تضمنته صفحة الكتاب، وهذا بحد ذاته مؤشر على أنَّ المتلقي، ينظر إلى الصفحة نظرة كلية وإلا لو كانت نظرته جزئية، بحيث تسجيب لكل جزء في حد نفسه بمعزل عن غيره من الأجزاء، لكان خلل التلقي مقصورًا على ذلك الجزء فقط ، ولا يتعدى إلى عموم النص المقروء " والأمر نفسه بالنسبة إلى إدراكنا موضوعات الكتاب أو أفكاره، فنحن نقرأ الموضوعات عبر (تأثيرها الكلّي) فينا ، بحيث إذا كان الموضوع موسومًا بشيء من خلل في الفكرة: أثر ذلك الخلل في طبيعة تلقينا للفكرة "[٣].

(١) البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلامي، محمود البستاني، ١٦٨.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلامي، محمود البستاني، ١٦٨

ولا ينفي الدكتور محمود البستاني، عملية التفكيك بين أجزاء الظاهرة المدركة ولا ملاحظة أي جزء فيها بصورة تلقائية أو عمدية، فمما لا شك فيه ولا ريب يعتريه، أنَّ نشاطنا الذهني، قائم على عملية (التحليل والتركيب) للظواهر التي يدركها، وهذا أمر وجداني نجده في أنفسنا، بيد أنَّ ذلك، يضمر في الوقت ذاته، وجود (وحدة) إدراكية ، تستند إليها عملية التحليل والتركيب تلك ؛ إذ أنَّ تحليل الشيء، يستبطن تركبه من مجموعة أجزاء، وجمع هذه الأجزاء وتأليفها ضمن مركب، تعني أنَّ ثمة وحدة ، تنتظم تلك الأجزاء، ولولا وجود تلك الوحدة الإدراكية، لما أمكن التحليل ولا التركيب [١].

الثاني : مكتشفات علم النفس الحديث، لاسيما (مدرسة الجشطاليت- Gestalt) التي ترى أنَّ مجموع العناصر يشكل كلًا متكاملًا ومتناسقًا ، هو عبارة عن ظاهرة محددة ، تشتمل بما هي كلٌ على معنى معين ، بحيث لا يمكن إدراك هذا المعنى على مستوى الأجزاء أو العناصر؛ لأنّ تحليل الكل إلى عناصره يفقده ذاك المعنى، ومن هنا " فإنَّ هذه المدرسة تنطلق من مبدأ أنَّ الكل هو أكبر من مجموع العناصر المكونة له ، فمدرسة الجشطالت تؤكد ضرورة دراسة الخبرة النفسية ضمن الإطار ، أو السياق الكلي الذي توجد فيه ، وذلك من أجل فهم البنية التنظيمية المتأصلة بها "[٢]، ومن ثم خلصت إلى أنَّ الذهن في إدراكه للأشياء ينتقل من الكل إلى الجزء، ومن المجمل إلى المفصل " فحينما ينظر الإنسان إلى صورة، أو إلى منظر طبيعي، لكان أول ما يراه من الصور أو المنظر انطباعا عاما مجملا، فلو أطال النظر والتأمل أخذت تفاصيل الصورة ، أو المنظر تثبت إلى عينيه واحدة بعد الأخرى، وقد يستطيع بعض الرعاة إدراك نقص القطيع دون تعداده : ذلك لأنَّ النظرة الإجمالية العامة والإدراك الإجمالي العام سابق التحليل والتعرف على الأجزاء "[٣]

الثالث : نظام الكون القائم على الوحدة الترابطية بين أجزائه ، أو بحسب تعبير البستاني " الكون نفسه خاضع لنظام خاص يتألف من جزئيات يتناغم بعضها مع الآخر ضمن –

(١) ينظر، البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلامي، محمود البستاني ، ١٦٩ .
(٢) علم النفس المعرفي، رافع النصير الزغول، عماد عبد الرحيم الزغول ، ١٢٥ .
(٣) علم النفس العام، سالم عبد الله الفاخري،١ / ١٦١ .

الكل- أو -الوحدة- التي تنتظم هذه الجزئيات ، وعملية إدراكنا للأشياء تتم وفق الآلية المذكورة نفسها "[١].

ولا يظهر من الدكتور البستاني، الإحالة على مصدر محدد في التعويل على الوحدة الترابطية للكون، مما يدفعنا إلى الحدس، بأنَّه جاء نتيجة للتأثر بمعطيات المدارس النفسية لا سيما الاتجاه الشكلي أو الكلي، الذي يرى " الإدراك يتعلق بالأشياء بجملتها وهيئاتها العامة، منذ الوهلة الأولى. لأن هناك صيغا وأشكالا أولية في العالم الخارجي، تناسب صيغ العقل وأشكاله، فيمكننا ان نفسر تنظيم الحياة العقلية ، بتنظيم قوانين العالم الخارجي نفسها ، لا بالتركيب والتداعي ، فالجزء في الصيغة أو الكل، إنّما يدرك تبعا للكل، ويتغير تبعا لتغير الصيغة"[٢]، لكن الباحث يستبعد أن يكون ذلك ، مستند الدكتور محمود البستاني؛ لأنّ أقصى ما يدل عليه الإدراك في مدرسة الجشطاليت، هو كلية الظاهرة ووحدتها، ومعلوم أنّ وحدة الظاهرة، لا تستدعي وحدة الكون بالشكل الذي، ذكره البستاني.

أغلب الظن وبالالتفات الى تجربة البستاني العرفانية[٣] أنَّ استناد البستاني، في القول بوحدة النظام الكوني وترابطه يبتني على مقدمة فلسفية ، ترى أنَّ العالم، خاضع لنظام خاص يتألّف من اجزاء يتناسق بعضها مع الآخر ضمن (الكل) ، أو (الوحدة) التي تنتظم هذه الأجزاء، فتتعلق بعضها ، ببعضها الآخر، وترتبط ارتباطًا وثيقًا .

وهذا الأمر، آمنت به مذاهب فلسفية متعددة ومن ضمنها البنيوية في بعدها المعرفي، فقد نادت بالنظام الكلي والمتناسق الذي يوحد ويربط العلوم بعضها ببعض، ثم يفسر العالم والوجود " ولقد أجهد الفلاسفة ومؤسسو المدارس الفلسفية أنفسهم عبر التاريخ، وما يزال الكثيرون منهم يسعون إلى معرفة المنهج ، أو الكيفية التي يمكن بمقتضاها إرجاع

(١) البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلامي، محمود البستاني ،١٦٨.
(٢) فلسفتنا، محمد باقر الصدر،٣٢٧.
(٣) ينظر، عبد الجبار الرفاعي، صديقي الأخلاقي المفسرِّ دكتور محمود البستاني، صحيفة المثقف (١٨ / ٩/ ٢٠٢٢م) استرجعت في تاريخ ١٠ / ١/ ٢٠٢٣ من
https://www.almothaqaf.com/component/authors/?view=articles&id=742&lang=ar&Itemid=1654&start=.200

سائر عناصر الكون إلى أصل واحد، والوصول إلى منهج ، أو نظام معرفي ، أو نموذج معرفي يمكن من تفسير الظواهر الكونية والطبيعية به بشكل عام شامل " [١].

ويشير الأستاذ مرتضى مطهري إلى قدم المسألة في البحث الفلسفي، وتقاطع رؤى الاتجاهات المختلفة، إلهية كانت أم مادية حولها، ثم خلص إلى أنَّ " الكون كلّ واحد يرفض التجزئة"[٢]، وهي وحدة تأبى التجزئة، بحيث إنّ حذف بعض الأجزاء يعني حذف جميع الأجزاء، تمامًا مثلما " الإبقاء على البعض هو عين الإبقاء على الكل "[٣]

وبالالتفات إلى ما تقدم وبما أنّ جزئيّات الكون، يتناسق بعضها مع الآخر ضمن وحدة تنتظم هذه الجزئيّات، فلا ريب أنّ تلك الوحدة، تشمل عمليّة الإدراك للشيء بعدّها من جزئيّات الكون، ومن ثمَّ يتعين أن يكون إدراكنا لشيء ما إدراكًا كليًّا بما هو منتظم ومترابط مع غيره .

لقد تعامل الدكتور البستاني مع إفرازات مدرسة (الجشطالت- Gestalt) على أساس انّها مسلّمات معرفيَّة، وتم البناء عليها في إعادة النظر في المنهج التقليدي القائم على النظرة التجزئية للنص، ورسم منهج جديد في ضوء المفاهيم الكلية التي أنتجها (الجشطالت) يأخذ بالحسبان أنّ " وجود الوحدات وفاعليتها الوظيفية مرهون بموقعها من النص، ودرجة كثافته، ودورها في متتالياته، وأنَّ اتساقها في منظومات عريضة تشمل رقعة النص وما يتعالق معه هو الذي يحدد كفاءتها التعبيرية والجمالية الخاصة [٤]" .

وبموازاة ذلك، أسهمت مدرسة الجشطالت (Gestalt) بتطوير العمل الأدبي عبر تقنيات (التداعي الذهني و الإدراك الجشطالتي) وغيرها من عمليات نفسية، أدّت بالنهاية إلى الربط بين موضوعات العمل الأدبي، التي لا رابط بينها، عبر إخضاعها لعملية فكرية، توحد بينها وتحقق الترابط والانسجام فيما بينها، وهذا ما نجده في الأعمال الأدبية الحديثة،

(١) الجمع بين القراءتين، قراءة الوحي وقراءة الكون، طه جابر العلواني ،٤٩.
(٢) العدل الإلهي، مرتضى مطهري، ١٣٥
(٣) المصدر نفسه.
(٤) بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل ،١٢١.

التي انتهت إلى " تقنية النص الأدبي وفق مبنى هندسي : يتناول موضوعات مختلفة لا علاقة لبعضها بالآخر، ثم إخضاع هذه الموضوعات المتباينة إلى – فكر – أو –شعور – يوحد بينها ويمثل قاسمًا مشتركًا بين تلكم الموضوعات "[١].

ومن يتابع نتاجات الدكتور البستاني، يلحظ بوضوح، تأثره بمعطيات المدارس النفسية، ليس على مستوى مفاهيمها العامة من مثل الإدراك الكلي بل سرى ذلك إلى مبادى الإدراك نفسه التي تبنته بعض المدارس النفسية مثل (الجشطالت– Gestalt) حين أكدت على جملة مبادئ ، سمتها بـ(التنظيم الإدراكي) مثل : (التقارب – التشابه – الاتصال – الإغلاق – التشارك في الاتجاه) [٢]، والجامع المشترك بين هذه المبادئ هو : الاتصال بين الظواهر وكليتها، وبما أنّها تتمحور تحليل الإدراك الذهني، فهذا يعني أنَّ تطبيق مفاهيمها على النص الأدبي، سيكون متجهًا بالضرورة نحو المتلقي، وكلا الأمرين (الاتصال – التلقي) من أهم معالم تصور الدكتور البستاني للنظرية البنائية .

وهذا التأثر لم يقتصر على صياغة النص الأدبي وتقنيات بنائه، بل سرى إلى نقد البلاغة القديمة التي يرى البستاني أنّ كثيرًا من قواعدها، تخالف قوانين الإدراك البشري وما يواكبها من قوانين الاستجابة .

وفي سياق التحليل الذهني، يأتي (الأثر الكلي لقراءة النص) في تجلية البنائية فالمتلقي (مثلما هو مشاهد) يتفاعل مع النص كله، فهو وبعد الانتهاء من قراءة النص، يظفر بمراده الكلي حتى ولو كان بصورة إجمالية غير واضحة تمام الوضوح، تبعًا لدرجة (وعيه بالقراءة)، وهذا التأثر قد يكون (لاواعيًا) وغائمًا، ولكن مع ذلك ، نحن " نحس بأثر إجمالي – مركب – من أفكارها الرئيسة والثانوية والعرضية والطارئة قد نسجها – التداعي الذهني ، أو التضاد ، أو التماثل ، أو الآليات الذهنية والنفسية الأخرى التي تتشابك لتصوغ الأثر المشار إليه"[٣] ، وهذا الترابط العضوي الذي أفرزته، مقاربة النص بصورة كلية ولو

(١) الإسلام والفن، محمود البستاني ،٩٣.
(٢) ينظر، اتجاهات حديثة في علم النفس المعرفي، شذى عبد الباقي محمد، مصطفى محمد عيسى، ١٣١ .
(٣) المنهج البنائي في التفسير، محمود البستاني ،١٦.

بشكل لاواعي، يتعذر وجوده عند تناول بعض فقرات النص ، أو موضوعاته، مما يكون معه الأثر، متمحورًا حول ذلك الجزء وحسب.

إنّ هذا يعني فيما يعنيه :

أولا : إنّ الذهن البشري مزود بآليات نفسية وذهنية، تضمن التلقي الكلي ، وتعمل بشكل تلقائي في حالة التناول الكلي للنص حتى في الظرف الذي يكون فيه ذلك التناول لا مثاليًّا ، والمتلقي غير ملتفت تمام الالتفات ، فتلك الآليات الذهنية والنفسية ، تضمن تحقيق أثر التلقي ولو بصورة غائمة ومضببة .

ثانيا : إنّ المقاربة الجزئية لا تنتج أبعد من الأثر المترتب على جزء النص الذي تمت مقاربته، بحيث لا يضمن معه تحقيق التواصل النصي، " وبهذا يفترق التناول للسورة عن طريق عمارتها العامة، عن التناول لبعض آياتها أو مقاطعها، حيث تنحصر معطيات ذلك في البعض المذكور كما لو تتناول ظاهرة الانفاق ، أو الصلاة ، أو الابداع الكوني أو غيرها، فيما ينسحب أثرها الجزئي على المتلقي " [1]

والنتيجة التي يخرج بها الدكتور البستاني من اعتماده الأثر الكلي للنص، هي لا بديَّة أنّ يكون النص ذا وحدة إتصالية؛ كي يحقق غرضه الأصل ومقصده الرئيس؛ لأنّه إذا كان " النص الأدبي مطروحًا بشكل عشوائي، فإنّ الغرض الفكري الذي يستهدفه النص، سوف لن يتحقّق بالشكل المطلوب ، لأنّ إدراكنا للشيء ومنه : النص الأدبي يعتمد على التأثير الكلّي الذي يتركه هذا النص لدى القارئ فإذا أصاب النص خلل، ترك تأثيره على إدراكنا لمفهوم النص."[2]

ويرى الدكتور محمود البستاني، أنّ التلقي الذي هو غاية النص وهدفه ، يفرض كليَّة السورة ، أو بعض مكوناتها الشكلية كالقصة مثلًا ، ثمَّ يتعين " إخضاع السورة أو قصصها إلى فكرة عامة يستهدفها النص حتى تترك تأثيرها في المتلقي، وإلا ينتفي مفهوم الهدف الذي

(١) المنهج البنائي في التفسير،١٦.
(٢) البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلامي، محمود البستاني ، ١٦٨.

تحوم السورة أو القصة عليه ."[1] .

لعل تصور البستاني في موضوعة الكل والجزء، يحلينا على ما ذكره أرسطو بقوله " وليست أعضاء الجسم أعضاء للجسم الا بارتباطها ، فالذراع المفصولة عن الجسم ليست ذراعا الا بالاسم "[2]، وهذا يعني أنّ أعضاء الجسم ، تكتسب هذا العنوان بارتباطها بالجسم أي في ظرف كونها جزءًا من مجموع هو عنوان كلي للأعضاء، وهذا عين ما نادت به البنيوية مثلما رأينا عند الحديث عنها.

يستحضر الدكتور محمود البستاني مضمون المقولة الأرسطية، بتفصيل أكبر، ويحاول التشبيه بين أعضاء الجسم التي لها وظيفتان خاصة بكل عضو من الأعضاء ، وأخرى عامة، تتأزر فيها جميع الأعضاء لتقوم بوظيفة عامة للجسم مضافًا إلى تلك الخاصة، وبين هندسة النص القرآني بعناصره المتعددة التي تؤدي وظائفها على نحو يشابه وظائف الجسم الخاصة والعامة، ويقيم ذلك شاهدًا مزدوجًا على الوحدة البنائية للنص القرآني وعلى كونه نصًا فريدًا إلى حد الإعجاز، فإنّ "القرآن الكريم من حيث إعجاز سوره المبتنية على وحدة هندسية تماثل تماما ما نلاحظه في وحدة الأجهزة البدينة عند الإنسان، ...بحيث يؤدي كل جزء من ذلك الجسم وظيفة خاصة من جانب ، وتتواشج وتترابط وتتواصل هذه الجزئيات فيما بينها لتؤدي وظيفة عامة من جانب آخر، وهذا كله لا ينفي كما قلنا أن تكون معرفتنا لهذه الجزئية ، أو لتلك أيضًا منطوية على فائدة ما، إلّا أنّ هذه الفائدة تظل كما قلنا جزئية".[3]

ومن هنا ، لا بد أن يتشكل فهمٌ للكل عبر تحديد المجال المجمل للنص، إمّا من القرائن اللفظية والسياقية التي تحتف بالنص وينطوي عليها ، أو عن طريق التقنيات الذهنية والنفسية والدلالية التي تحدث عنها الدكتور البستاني، عبر ما سماه بـ (إستثارة القارئ) عقليًّا وعاطفيًّا " كافتتاح النص بظاهرة ما، أو إجمالها أو تفصيلها ، أو حذفها أو اختزالها، أو التدرج أو التصاعد بها ، أو توشيحها بعناصر تخيلية أو عاطفية: كالصورة أو الرمز ،

(١) التفسير البنائي للقرآن الكريم، محمود البستاني، ٣ / ٩٢.
(٢) المنطق الشكلي و المنطق الديالكيتي، كيدروف ،٣٤
(٣) محاضرات في علوم القرآن، محمود البستاني، ٤٠٨.

وكالايقاع، أو رفدها بأدوات قصصية أو حوارية ... أولئك جميعًا يعتمدها النص لتحقيق الإثارة المطلوبة"[١].

وبحسب الدكتور البستاني فإنّ هدف أي نص علمي أو أدبي هو: لفت نظر المتلقي إلى حقيقة معينة من جانب، ولفت نظره إلى ما يواكبها من حقائق عامة مكملة لها من جانب آخر، وهذا الأمر لا يتحقق دون معرفة طرائق الاستجابة وما يواكبها من العمليات النفسية التي تفضي إلى تحقيق إستثارة القارئ[٢].

إنّ أمر فهم الجزء من الكل ، قد عرفه المتقدمون، لا سيما مقاربة (النظم) لعبد الجبار المعتزلي ، وعبد القاهر الجرجاني، اللذَينِ أكدا أنَّ الكلمة، لا يظهر حسنها أو معناها إلا عبر سياق الكلمات التي تنتظم فيه معها، ومن هنا قال الجرجاني " واعلم أنّ مثل واضع الكلام مثل من يأخذ قطعاً من الذهب أو الفضة فيذيب بعضها في بعض حتى تصير قطعة واحدة، وذلك أنّك إذا قلت ضرب زيد عمرًا يوم الجمعة ضربًا شديداً تأديبًا له ، فإنك تحصل من مجموع هذه الكلم كلها على مفهوم هو معنى واحد لا عدة معان كما يتوهمه الناس؛ وذلك لأنك لم تأت بهذه الكلم لتفيده أنفس معانيها وإنّما جئت بها لتفيد وجوه التعلق التي بين الفعل الذي هو ضرب وبين ما عمل فيه والأحكام التي هي محصول التعلق"[٣] ، نعم يفرق عنهم البستاني في أنَّه تناول النص بمجموعه مثلما تقتضيه الوحدة العضوية في بناء النص، وهو تناول يترتب عليه : " أنَّ كل جزء لا يمكن النظر إليه منفصلًا عن علاقته بالأجزاء الأخرى، وعلاقة هذه الأجزاء بـ(وحدة) الفكرة والموضوع؛ لأنَّ النظر إلى كل جزء على حدة، يجعل النص فاقدًا وحدته الفكرية والموضوعية "[٤] فيما اقتصرت مقاربة المتقدمين على الحقل الجملي.

(١) المنهج البنائي، محمود البستاني، ١٥.
(٢) ينظر، في عمارة السورة القرآنية، محمود البستاني، (٥/ ٨/ ٢٠١٩ م)، استرجعت بتاريخ ١٢ / ١/ ٢٠٢٣ من https.//www.quranicthought.com/ar/books/%D%81%9D8%9A
(٣) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني،٤١٢.
(٤) القواعد البلاغية في ضوء المنهج الإسلامي، محمود البستاني، ٣١٤.

يتجلى في هذا الأصل، مقدار اعتماد الدكتور البستاني على مخرجات المدارس النفسية (الجشطالت- التحليلية) فالاولى بما قدمته من تحليل لطبيعة الإدارك وهو كلي بالطبع، والثانية بما نسجته عن (اللاوعي)، والبستاني يعتقد انَّ كلا المدرستين، كانتا لهما يد بيضاء على العمل الأدبي عن طريق ربط موضوعات العمل الأدبي التي لا رابط بينها، بوحدة فكرية أو شعورية، تجمع بينها [١].

الرابع : التطور البلاغي

يأخذ الدكتور محمود البستاني على البلاغة القديمة في نقده لها، اتسامها بالتناول الجزئي للنصّ بدلًا من التناول الكلّي له ، بمعنى أنّ قواعدها تتناول المُفردة ، أو الجملة أو الفقرة فحسب، مع أنّ النصّ الادبيّ لا تنحصر جماليّته في فقرات ، أو آيات مستقلّة ، بل في كونه جُملًا ، أو آيات يرتبط بعضها مع الاخر، ويخضع لهندسة خاصّة من حيث تنسيق الافكار والمواقف ، وهذا ما دعاه إلى إعادة النظر في كثير من القواعد البلاغية الموروثة ، وحيث أنّ البلاغة، تشكل الأصول أو المبادئ التي يتوكأ عليها الأدب ، وبما أنّ البستاني يرى القرآن الكريم، نصًا أدبيًّا غاية الأمر، هو نص معجز، فمن الطبيعي أن يتغير التعاطي مع النص القرآني بتغير قواعد المنهج الذي يتم عبرها استنطاقه، إلى منهج يتبنى المقاربة الكلية التي تؤمن بكليَّة المعنى، وترابط مكونات النص بمستوييها الشكلي والمضموني .

والبستاني، يرجع القصور المفترض في التناول الكلي للنص القرآني، الذي يرى أنّ القدماء قد ابتلوا به " إلى أنّ القدماء، لم يتيسر لديهم وعي ثقافي يسمح لهم بدراسة النص الأدبي عن طريق الوحدة العضوية التي تربط بين أجزاء النص من جانب، وبينه وبين عناصره التي يتألف منها من جانب آخر، حيث تتطلب مثل هذه الدراسات ثقافة فنية ونفسية واجتماعية لم تتوافر ألا في العصور الحديثة "[٢]، ويقدم المنهج البلاغي التقليدي ، شاهدًا على ذلك ، فهذا المنهج الذي يكاد يخلو من عنصر رابط بين الموضوعات المتعددة

(١) ينظر، الإسلام والفن، محمود البستاني،٩٣.

(٢) في عمارة السورة القرآنية، محمود البستاني، (٥/ ٨/ ٢٠١٩ م)، استرجعت بتاريخ ١٠ / ١/ ٢٠٢٣ من https://www.quranicthought.com/ar/books/%D%81%9D8%9A

التي ينطوي عليها النص ، اللهم " عدا قاعدة واحدة هي ما يطلق عليه مصطلح :حسن الاستهلال والتخلص والختام ، وهذه القاعدة – كما هو واضح – لا تتناول إلاّ جانبًا واحدًا من عمارة النص، إلّا وهو كيفية استهلاله بهذا الموضوع أو ذاك، وكيفية الانتقال منه إلى الموضوع المستهدف، وكيفية الختام " [١]

ولا يعنينا الآن، مدى دقة الكلام الذي ينعت القدماء بعدم وعيهم الوحدة العضوية في النص، ولا التفصيل في رؤية الدكتور البستاني البلاغية ، ونتائجها المنهجية لا سيما تلك المتعلقة بطبيعة تناول النص القرآني، بيد أنّ ما يعنينا هو الإشارة إلى أنّ الأصل البلاغي الذي نرى أنّه احد مسوغات القول بالنظرية البنائية، هو وبحسب البستاني، أحد إفرازات الثقافة الحديثة التي لا يمانع الدكتور البستاني في توظيفها لفهم النص الديني ، والكشف عن مكنون أسراره الجمالية والدلالية، ولا يجد بأسًا في الاستشهاد بالحركة التأريخية للأعمال الأدبية الحديثة من رواية ومسرحية وقصيدة، وما تضمنته من تطور فني حتى انتهت إلى بناء النص الأدبي بناء هندسيًّا ، يتم فيها الجمع بين شراشر الموضوعات المختلفة والربط بينها برابط محدد، ليجد أنّ هذا التطور التأريخي للأدب، مدعاة للرجوع إلى النص القرآني ودراسة خصائصه الفنية بروح كلية ، ترابطية ، فهو القائل : " ما يعنينا من التلميح العابر الى التقنية الادبية المعاصرة، لفت الانتباه الى الأهمية الفنية لسور القرآن الكريم من حيث تنوع موضوعات كل سورة، وتلاحم هذه الموضوعات فيما بينها عبر خيط فكري يجمع بينها ، وهو أمر لا يكاد القارىء العابر يتنبه إليه "[٢].

والبستاني في تصوره السالف، ينطلق من مسلَّمتين :

الأولى : إنّ هدف أي نص علمي أو أدبي هو: لفت نظر المتلقي إلى حقيقة معينة من جانب، ولفت نظره إلى ما يواكبها من حقائق عامة مكملة لها من جانب آخر[٣] .

(١) https://www.quranicthought.com/ar/books/%D%81%9D8%9A.

(٢) الإسلام والفن، محمود ا لبستاني،٩٣.

(٣) في عمارة السورة القرآنية، محمود البستاني، (٥/ ٨/ ٢٠١٩ م)، استرجعت بتاريخ ١٠ / ١/ ٢٠٢٣ من https://www.quranicthought.com/ar/books/%D%81%9D8%9A

الثانية : إنّ الغرض الفكري الذي يستهدفه النص، لن يتحقّق بالشكل المطلوب في ظرف كون النص الأدبي، مطروحًا بشكل عشوائي.

وفي السياق التطبيقي ، يقدم البستاني، نموذج سورة الكهف ويقاربها تارة مقاربة جزئية وأخرى كلية ؛ ليتضح الفرق الجذري بين نتائج المقاربتين، حيث بقت الأولى منهما، حبيسة النظرة التجزئية التي هي إحدى إفرازات المنهج البلاغي التقليدي، فيما اتسمت الثانية بالنظرة الكلية بما تنطوي عليه من هدف عام للنص، يسري في تفاصيلها سريان الروح في البدن فيجعل من تلك الأجزاء وكأنها شبكة علاقات متلاحمة فيما بينها ، ويفضي أحد الأجزاء إلى الآخر في تكامل نصي لافت.

إنّنا نواجه مثلًا في (سورة الكهف) حقائق معينة ، تتحدث عن (زينة الحياة الدنيا) بألسنة متعددة ، فتارة تقول " المال والبنون زينة الحياة الدنيا " ، وأخرى إنّ الدنيا بجميعها هي بالنهاية، زينة : " إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها " ، وفي ثالثة تدلل على أنّ المصير النهائي هو زوال هذه الزينة " وإنا لجاعلون ما عليها صعيدًا جرزا " ، وهكذا غيرها من تعابير قرآنية تؤدي الغرض نفسه ولكن تبقى معرفتنا بأنّ الحياة عبارة عن زينة ، لا تفي بالأثر المطلوب إلا بربطها بحقائق أخر مكملة لها، وهذا ما يتكفل به التناول الكلي للنص القرآني، فنجد أنّ السورة، قدمت لنا نماذج للتعامل السلبي والإيجابي مع زينة الحياة الدنيا، وثنّته بذكر المصائر الدنيوية والآخروية لمن ينبذ تلك الزينة أو يتشبث بها، وقدمت في هذا الصدد شواهد عملية " حينما أوضحت بأنَّ صاحب الجنتين مثلا قد أبيدت مزرعتاه. فإذن تذكرنا أنّ السورة الكريمة، ذكرت في مقدمتها بأنّ الله تعالى قد جعل زينة الحياة صعيدًا جزرًا ، حينئذٍ عندما يربط القارىء بين هذه المقدمة وبين النتيجة التي لحظها بالنسبة إلى إبادة المزرعتين المذكورتين، تزداد قناعته بأنّ زينة الحياة الدنيا مصيرها إلى الزوال"[1] ، ثم دللت على السلوك الأمثل للتعامل مع هذا الزينة الزائلة، وأنواع نبذها الذي قد يتحقق بالعزلة الاجتماعية التامة كما فعل (أصحاب الكهف) ، وقد يتحقق في ظرف كون الإنسان

(١) https://www.quranicthought.com/ar/books/%D%81%9D8%9A

يعيش في عمق الحياة الدنيا ويصل إلى أعلى المراتب المرموقة ، فيما قد يحرص إنسان على الدنيا وزينتها مع أن أقصى حظه منها مزرعتان ؛ لذلك قدمت لنا السورة" نموذجين متضادين: أحدهما صاحب المزرعتين الذي بهرته زينة الحياة الدنيا وهو لا يملك غير مزرعتين، والآخر ذو القرنين الذي تملك مشرق الأرض ومغربها دون أن تبهره زينة الحياة الدنيا "[1]، ويلاحظ هنا إنّه قد تحقق هدف النص وغرضه الفكري وفي الوقت عينه ربط المتلقي بين مقدمة النص ونتيجته ، بما يحقق تلاحم النص وتماسكه ، وهو أمر لن نجد إلى تحقيقه سبيلًا ، حين نتناول السورة الكريمة وفقًا للرؤية التجزئية الموروثة ، أو الموضوعية المحدثة ؛ لذلك " تظل القراءة الكلية للنص ذات أثر أشد سعة من القراءة التجزيئية والموضوعية أيضًا، ما دامت الأخيرة تحصر المسألة في نطاقها المحدود دون أنّ يتجاوز إلى الأجزاء المتساندة والمتممة والمعمقة للظاهرة المبحوث عنها "[2] .

المبحث الثالث : تقويم ومناقشة

بعد أن عرضنا أهم الأصول المنتقاة من كلمات الدكتور محمود البستاني، لتشييد نظريته البنائية، نحاول الآن، تقيمها، وطرح ما يمكن أن ياتي عليها من مناقشات، وذلك ضمن نقاط :

النقطة الأولى : لقد رأينا ومن عرض الأصل الكلامي، أنّ البستاني، يأخذ على عموم الباحثين لا سيما المتقدمين منهم، إهمالهم سؤالًا محوريًا يتلخص بالسر المستسر وراء انتظام القرآن الكريم بعدد محدد من السور، وتمايز كل سورة عن أخرى بما يضمن عدم تشتتها وانتشارها، ويرى أنّ المنحى البنائي، يتكفل بملأ هذه الفجوة المنهجية ، لكن السؤال المطروح هو : هل فعلًا غفل المتقدمون عن طرح مثل هذا التساؤل؟ وإن كانوا فعلًا قد طرحوه، فهل بنوا عليه رؤية منهجية عضوية أم لا ؟

(١) في عمارة السورة القرآنية، محمود البستاني، (٥/ ٨/ ٢٠١٩ م)، استرجعت بتاريخ ١٠ / ١/ ٢٠٢٣ من https://www.quranicthought.com/ar/books/%D%81%9D8%9A_

(٢) المنهج البنائي في التفسير، محمود البستاني، ١٩.

الحقيقة أنّ المتقدمين، قد تناول الأمور المذكورة في مبحث (التناسب) وغيره، فقد أكد المشتغلون بهذا المبحث على كون ترتيب السور فضلًا عن آيات القرآن توقيفيًّا، مقدمة لبحث التناسب بين سوره وآياته، ودفعًا للإشكالات التي قد تأتي على مقارباتهم المبنية على أساس التناسب ، فقد نقل الزركشي عن بعض أساتذته قوله بشأن القرآن: " وفصل الخطاب أنّه على حسب الوقائع تنزيلا، وعلى حسب الحكمة ترتيبا"[١]، وبموازاة ذلك طرح بعضهم تساؤلات ترتبط بالوحدة العضوية للسور والآيات، فقد كان أبو بكر النيسابوري " يقول على الكرسي إذا قرئ عليه الآية : لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟ وكان يزرى على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة "[٢].

وفي السياق ذاته، عللوا التحدي القرآني بسورة أو سور دون الآيات، فقالوا: " ولسر النظم القرآني كان التحدي بالسورة وإن كانت قصيرة دون الآيات وإن كانت ذوات عدد" ، وأرجعوا سبب تسمية السورة بهذا الإسم إلى كونها " منزلة بعد منزلةٍ مقطوعة عن الأخرى "[٣].

والأمر نفسه يقال عما أشار إليه الدكتور البستاني من تكرار الموضوعات في سياقات مختلفة من سور متعددة، فقد برر شهاب الدين الآلوسي (١٢٧٠ هـ) تكرار القصة في أكثر من سورة، بتجدد فائدة غير الفائدة التي افرزها ذكر القصة في سورة مغايرة، بل هذا هو الشأن في كل موضوع قد يُعد لأول وهلة ، مكررًا، وعليه " فلا يعد ذكر هذه القصة هنا مع ذكرها قبل تكرارا ؛ لأنّ ذكرها هنا لفائدة غير الفائدة التي ذكرت لها فيما قبل ، وهكذا ذكرها في كل موضع ذكرت فيه من الكتاب الجليل ، ومثل هذا يقال في كل ما هو تكرار بحسب الظاهر فيه"[٤]، والمعنى نفسه نجده عند سيد قطب في حديثه عن الحيثية التي

(١) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد الزركشي،١/ ٣٨
(٢) المصدر نفسه، ٣٧.
(٣) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب ، شرف الدين الطيبي،٥ / ٥٤.
(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين الآلوسي، ١٥ / ٢٩٤.

تتناولها السورة من موضوعات، يفترض أنّ السورة تشترك فيها مع غيرها من سور أخرى: " على عادة القرآن الكريم في تناوله لموضوعاته الموحدة، بطرق شتى، تختلف وتتشابه، ولكنها لا تتكرر أبدا ولا تتماثل"[١] .

النقطة الثانية : استنتج بعض الباحثين من حديث الدكتور البستاني حول انتظام سور القرآن الكريم، أنّه يقول بتوقيفية ترتيب المصحف، بحسب أمر النبي صلى الله عليه وعلى آله ، ثمَّ اندفع البستاني لمعرفة أسرار هذا الترتيب، وفقًا لمنهجه البنائي، وبحسب الباحث المذكور، فإنّ ما فعله الدكتور محمود البستاني من اعتماده على النقل الروائي في هذه الجزئية، أمر قد سبقه إليه المتقدمون حين استحضروا مثل هذا النقل في وجه من أراد التقليل من شأن عملهم ، تعويلًا منهم على أنَّ ترتيب السور توقيفي ، ثم عرض بعض النصوص العلمائية في هذا الصدد ؛ ليخلص إلى أنَّ " هذه النصوص تشير إلى أنّها الجذر التراثي لرؤية البستاني وهي تكفي لأن تكون مسوغا نقليًا لهذه الدراسات في القديم والحديث ، فكلا الرؤيتين مشتركتان بالمسوغ النقلي، وقطعا هو عند القدامى أسبق وعليه يكون الدكتور البستاني قد تابع القدامى في جعل هذا العامل مسوغا ، ولم يأت به بوصفه جديدا فما عليه هو إلّا أن عرضه وذكر به "[٢].

والحقيقة أنّ ابتناء هذا الاستنتاج والنتيجة المترتبة عليه معًا على أساس غير موضوعي، إذ لم يصرح الدكتور محمود البستاني بتوقيفية ترتيب المصحف، لا من قريب ولا من بعيد، وحديثه كان عن أسرار كون مجيء السور القرآنية وفق عدد محدد بالمعنى المتقدم أولًا ، وعن ترتيب آيات السورة الواحدة وأنَّ النبي صلى الله عليه وعلى آله كان يأمر بوضع الآية الفلانية الى جنب الآية الفلانية ثانيًا، وشيء من هذين الأمرين، لا يثبت أنّه يقول بترتيب توقيفي للمصحف القرآني بما تنطوي عليه هذه الكلمة من عموم.

لقد أوضح الدكتور البستاني، سر عدم تناوله دراسة السور القرآنية جميعًا عبر علاقة

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤ / ٢٠٧.

(٢) قراءة نقدية في الرؤية البنائية للنص القرآني عند الدكتور محمود البستاني، أحمد عويز العلي، مجلة اللغة العربية وآدابها ،ع ٧ / ٢٧٠.

بعضها ببعضها الآخر، مع أنَّه يمكن القول بأن السورة الواحدة وبحكم اقتصارها على بعض الظواهر دون جميعها، لا تحقق الأثر المطلوب الذي يدعي البستاني انّها تتركه في نفس المتلقي، وعليه فلابد من دراسة تمام السور؛ كي نصل إلى ذلك الأثر وإلّا سيبقى تناول السورة منفصلة عن غيرها، تناولًا جزئيًّا ، لا يفرق كثيرًا عن تناول المناهج التفسيرية التجزيئية للآية والمقطع .

وفي صدد الإجابة عن الفرق بين تناول السورة وبين الآية من جهة أثرها في المتلقي، يؤكد البستاني بأنّ السورة وبما هي وحدة مقروءة تختلف من حيث الأثر عن الآية أو المقطع، فصحيح انّ السورة تتناول ظواهر جزئية لكن ذلك التناول يكون " عبرالكل الذي يجانس بينها، وهذا يختلف بطبيعة الحال عن الاثر المنفصل عن الكل "[1]، ثمَّ فالأثر الذي تتركه السورة، مضافًا لاختلافه عن أثر الآية، كاف في تحقيق المطلوب.

مما لا شك فيه انّ الدكتور محمود البستاني، يقول بتوقيفية ترتيب الآيات القرآنية ضمن السورة الواحدة[2]، فجعل ذلك أحد مبررات بحثه عن أسرارهذا الترتيب داخل السورة، دون أن يتعدى ذلك إلى ترتيب السور مثلما قلنا، ومن هنا، فهو يتفق مع المتقدمين في أصل التعويل على الأثر النقلي مع افتراقه عنهم في سعة دائرة هذا الأثر أو ضيقه، وقد جاء بالدليل النقلي المتضمن لفعل النبي – صلى الله عليه وآله وسلم– تعضيدًا، لأصل حديثه عن انتظام القرآن بعدد محدد واندراج أجزائه تحت مسمى السورة .

النقطة الثالثة : إنّ ما عوَّل عليه الدكتور البستاني، من دليل نقلي، لتبرير البنائية التي قال بها، لا يخلو من مناقشة، فإنّه بالنهاية، لا يعدو كونه تعويلًا على قضية تأريخية، يمكن أن لا تكون ذات جذر راسخ إلى حد القول بيقينيتها، فهي والحال هذا مجرد نقل تأريخي، قد لا يترشح منه أكثر من ظنٍ في أمر بالغ الخطورة مثل الذي يدعيه البستاني.

على أنّنا لو تجاوزنا مسألة الإثبات التأريخي، فمع ذلك يبقى مضمون النقل في نفسه، لا

(١) المنهج البنائي في التفسير، محمود البستاني، ١٦.
(٢) ينظر، الإسلام، محمود البستاني ،٩٣.

يثبت أكثر من وجود مناسبة بين الآيتين أو الآيات، وليس أكثر من ذلك.

نعم يمكن أن يُعد ذلك منبهًا أوإشارة إلى سلوك هذا الطريق، لعل الباحث وعبر الاستقراء والاستقصاء، يتحقق صدق ما استظهره من الدليل النقلي، حول وجود وحدة بنائية، تنتظم بها الآيات القرآنية، فالمسألة ليست تعبديَّة خالصة حتى نطلب فيها دليلًا شرعيًّا مؤسسًا، بقدر ما هي قضية منهجية، تخضع للإعتبارات العقلائية.

إنّ قول الدكتور محمود البستاني، باختصاص كل سورة بطرح موضوعات محددة، ، تضمن لها التمايز عن غيرها من السور، أمر لا يفضي بالضرورة إلى البنائية التي يتبناها ، بما هي معبرة عن وحدة فكرية أو موضوعية، تتضمن أجزاءً متناسقة، فيما بينها، بحيث تصب هذه الأجزاء في (الوحدة) المشار إليها[1]، فإنّ أقصى ما تدل عليه هو ترابط تلك الموضوعات، وانسجامها فيما بينها ولكن هل وراء هذا الترابط والانسجام ، أمر كلي يمكن أن يشكل غرض النص وهدف السورة النهائي الأوحد، و الذي يفترض أنَّ تلك الموضوعات، جاءت لتحقيقه؟

قد يقال إنّه ليس من الضروري أن يكون الأمر كذلك ، والدكتور البستاني وهو الخبير القرآني المتمرس، نفى عن أغلب الدراسات القرآنية السابقة ، اضطلاعها بهذه المهمة ، رغم أنّ أكثر الدراسات القرآنية العضوية ، قد حامت حول هذا الأمر وحاولت التنظير له وتطبيقه عمليًّا، مثلما هو واضح في مبحث من (التناسب) ، حيث إنَّ أكثر الدراسات التي تضمنها هذا الحقل القرآني، رامت إثبات الوحدة الاتصالية بين آيات القرآن وسوره ، بيد أنّ أكثرمن هذا الكثير، بقي ينتهج المنهج التجزيئي القائم على بحث اتصال هذه الآية بتلك أو تلك السورة بغيرها، ولم يبحث الغرض الأصل والمقصد الرئيس للسورة .

ونحن لا نريد أن ننفي عن الدكتور البستاني ، بحثه عن غرض السورة ومقصدها الرئيس، وكيف نقول ذلك وهو في تجربته التفسيرية ، قد حاول إثبات ذلك عمليًّا في سائر السور القرآنية ؟ لكن مقصودنا هو أنّ مجرد اختصاص سورة معينة بطرح موضوعات

(١) ينظر، القواعد البلاغية في ضوء المنهج الإسلامي، محمود البستاني ،٣١٤.

محددة، لا يعني بالضرورة وجود هدف موحد وراء تلك الموضوعات يشكل مقصد السورة؛ لأنّه يمكن أن تختص السورة بموضوعات معينة ، من دون أن يكون بينها، وحدة إرتباطية دلالية ، وحتى لو كانت وراءها وحدة ترابطية ، فهذا لا يعني أنّ ثمة هدف مشترك كامن وراءها ، والدكتور البستاني نفسه ينتقد مقاربات المحدثين للسورة القرآنية، رغم أنّه يصنفها ضمن الدراسات الترابطية ، لكنه في الوقت نفسه يأخذ عليها، أنّها تناولت السورة عبر المناخ الفكري العام لها، الذي " يضطلع بتبين موضوعاتها والمحاور التي تركز عليها وهو أمر يختلف تماما عن التناول البنائي أو العضوي لها"[1] ، مما يعني أنّ الترابط بين موضوعات السورة ومحاورها، لايؤدي ضرورة إلى الوحدة البنائية التي تفترض هدفًا عامًا تشتد إليه جميع تفاصيل النص بشكل وآخر .

النقطة الرابعة : اعتمد الدكتور البستاني في تجلية نظريته البنائية على مخرجات المدارس النفسية الحديثة مثل : تحليلة فرويد وحديثها عن (اللاوعي) ، والجشطالت وتصورها للإدراك الكلي ومبادئه، ولعل الأصل الذهني التحليلي، هو أبرز الأصول التي حاول البستاني أن يشيَّد عليه رؤيته البنائية ، وفي هذا الصدد، تستوقفنا جملة ملاحظات :

الملاحظة الأولى : إنّ الدكتور محمود البستاني، يتعاطى مع إفرازات المدارس النفسية، تعاطي المُسلَّمات، مع انّها في النهاية (في موضوعنا تحديدًا) لا تعدو كونها، افتراضات أو نظريات في أحسن الأحوال، مما يعني أنّها قابلة للتبدل والتحول والتغيير، لا سيما وأنّ موضوعة الإدراك، قد صارت منتصلًا للسهام، ومورِدًا للنقض والإبرام بين المدارس النفسية الحديثة والفلاسفة من قبلهم[2] .

لقد دعا الدكتور البستاني نفسه إلى التحفظ في التعامل مع معطيات علم النفس، وحجته في ذلك، إنّها " حفنة معينة من المعلومات النفسية لم تتلمس شاطىء اليقين العلمي، بنحو يملك التفسير النهائي ، ومع اتكائنا على مثل هذا القدر المشكوك ، نفتقد قيمة النص،

(١) المنهج البنائي، محمود البستاني،١٤

(٢) ينظر في هذا الصدد، رؤية الأشياء كما هي، جون سيرل، ص٢١٢ وما بعدها.

وطبيعي إنّ النص يتقوم سلبا أو ايجابا بمقدار ما يقدمه الناقد من كشف واقعي ، في حدود ما يمنحنا الواقع من يقين تعورف عليه نسبيا بطبيعة الحال "[١] ، وهو وإن لم ينكر الاستفادة من المعطيات النفسية بل رأى ضرورة العنصر النفسي للناقد الأدبي ، وأنّه يسهم في إضاءة أبعاد النص الأدبي ، بيد أنّه حصر الاستفادة في مجال محدود جدًا ، ومن ثم فرَّق بين حالتين " ان نعتمد التجربة الحياتية التي تمدنا بضروب التفسير السيكولوجي شيء ، وان تحبك المعلومات العلمية المنظمة التي انتهى السيكولوجيون اليها بنحوها المترجرج ، أو المتماسك حينا ، شيء آخر "[٢].

وبعد أن تنزل الدكتور البستاني، وافترض أنّ المعرفة السيكولوجية، يقينية لكنه مع ذلك، يرى أنّنا " لا نملك اليقين التام بأنّ كل الحقول السيكولوجية قادرة على حل المشكلات الادبية جمعاء ، وبخاصة فيما تتصل بدقائق العمليات العقلية " ثم نقل عن الناقد والبلاغي إيفور آرمسترونغ ريتشاردز، تحذيره الدراسين من الاعتماد الكلي على العنصر السيكولوجي، فقد " جعل من أعمال فرويد عن –دافنشي –، وأعمال ديونج ، عن –غوته– وامثالهما، جعل منها أعمالا تبدو وكأنها متسمة بالسخافة حقا، اذا عدت أعمالا نقدية " .[٣]

ولا نعرف بعد هذا هل تعد مسألة الإدراك من ضمن القضايا المتعلقة بالعمليات العقلية الدقيقة التي يرى الدكتور البستاني، أن لا يقين تام بقدرتها على حل المشكلات الأدبية لا سيما مع هذا الاختلاف الشديد بين المدارس النفسية حول طبيعة الإدراك وما يتصل به ؟

وكيف يتم توجيه اعتماد البستاني على (اللاوعي) الذي أضَّلته، المدرسة التحليلة ، بعد أن نعت (ريتشاردز) أعمالها بالسخافة إن نُظر إليها على أساس أنها اعمال نقدية؟

نعم، يمكن القول بأنّ الدكتور محمود البستاني، وإن عوَّل على معطيات المدارس النفسية الحديثة ، لكن تعويله هذا لم يكن بما هي معطيات نقدية ، تسهم في تحليل العمل الأدبي مثلما

(١) في النظرية النقدية، محمود البستاني،١٢٥ .
(٢) المصدر نفسه، ١٢٤ .
(٣) في النظرية النقدية، محمود البستاني،١٢٨ .

نراه في (النقد النفسي) بل بما هي نظريات علمية تسهم في تحليل عملية الإدراك الذهني، وتحديد طبيعته والمبادئ التي يتكئ عليها بالقدر الذي ينهض بتحقيق التواصل النصي وكليَّة المعنى الذي ينطوي عليه النص، ولئن تم ذلك وبقيت مسألة يقينية هذه المعطيات محل تأمل وتشكيك، فإنّ التجربة الحياتية المعيشة التي يجدها الإنسان وجدانًا لاسيما قضية (التداعي الذهني)، قد تكون كافية في استحضار المعرفة السيكولوجية ، لا سيما وقد فرَّق الدكتور البستاني بين " مستويات متباينة في هذا الحقل ، فالتسليم بضرورة العنصر النفسي شيء ، واستلزام التسليم بالاتكاء على المعلومات التي تقدمها الاتجاهات النفسية الثلاثة أو سواها شيء آخر "[١] .

ولكن مع هذا كله، تبقى هذه المعطيات في أكثرها، لا سيما مسألة (اللاوعي)، قضية شخصية، ومجرد فرض، قابل للرفض أو القبول [٢] .

الملاحظة الثانية : إنّ كلمات الدكتور محمود البستاني، حول الإدراك الكلي، ربما شابها بعض التشويش، فهو تارة يؤكد على أنّنا وطبقًا لقوانين الإدراك " وهذا ما يعززه التجريب اليومي لحياتنا، نتلقى الأشياء عبر النظر إلى الكل "[٣].

وهو يعني أنَّ الإدراك، يتم أولًا للصورة الكلية ثم بعد ذلك الصورة الجزئية، لكنه وفي موضع آخر، يؤكد عدم الفرق بين أي الصورتين، تكون هي المُدرك أولًا ما دام أنّه وفي النهاية يتحقق إدراك الكلي " إنّ الذهن البشري يدرك الظواهر عن طريق الكل وهو أمر قد انتبهت إليه بعض الاتجاهات النفسية ، كما نعرف ذلك جميعا ، يستوي في ذلك أن يتم الادراك للكل عبر جزئياته أولا ثم الانتقال إليه ، أو عبره أولا ثم الانتقال إلى جزئياته ، وفي الحالتين ثمة إدراك لا ينفصل – كله – عن – جزئه – ولا جزؤه عن كله "[٤] ، وهو أمر تأباه

(١) في النظرية النقدية، محمود البستاني ،١٢٤.

(٢) ينظر في مسألة اللاوعي، رؤية الأشياء كما هي، نظرية الإدراك، جون سيرل،١٩٧ وما بعدها.

(٣) ينظر، الفهم المتجدد لآيات الكتاب المجيد في ضوء منهج التفسير البنائي، حوار مع، د. محمود البستاني، (١٤/ ٨/ ٢٠٠٩م). استرجعت في تاريخ ١٢/ ١/ ٢٠٢٣ من، https://www.ruqayah.net/subject.php?id=682

(٤) المنهج البنائي في التفسير، محمود البستاني،١٥.

المدارس النفسية التي تقدم موقفها من الإدارك، ففرق بين من يقول إنَّ إدراك الظاهرة، يتم أولًا عبر أجزائها وبين من يقول إنَّ العملية، تتم معكوسة، وأوضح هذه الفروق أنَّه وبناء على أنَّ الإدراك يتم من الكل فإنَّ الجزء لا تظهر حقيقته إلا من انتظامه ضمن الكل، فيما يعتقد الاتجاه القائل بأنَّ الإدراك يتم أولًا للجزء ومنه يتم الانتقال إلى الكل، أنَّ الجزء يمكن أن تظهر حقيقته بذاته، من دون أن يتوقف ذلك على انتظامه ضمن الكل .

الملاحظة الثالثة : إنّ الدكتور محمود البستاني من أظهر الداعين إلى أسلمة العلوم الإنسانية ، وقد أصدر في هذا الصدد، مؤلفات عديدة ، لكننا نراه هنا، يعتمد معطيات المدارس النفسية الحديثة ، وهو أمر قد يفضي الى جعل مرجعيته في اتجاهه البنائي النصي، غربيَّة المآل، مما قد يخلخل أساس توجهه السالف نحو أسلمة العلوم .

والحقيقة انّ البستاني، بيَّن حدود الاعتماد على المعطيات النفسية وغيرها، فهو يتحفظ اتجاه كل نتاج بعيد عن مبادئ السماء إلا في ظرف كونه مجسدًّا لمبادئ علمية وفنية، سماها بـ (المحايدة) بما هي رافد إنساني، مثل سائر الروافد الإنسانية المشتركة ، وهو توجه لا يضير أسلمة العلوم ما دامت تلك المخرجات لا تعارض مبدأ سماويًا ثابتًا، وتغطي مساحة تُرك للإنسان ملؤها بتجاربه وخبراته الذاتية.

الملاحظة الرابعة : رأينا الدكتور البستاني، يبرر غياب الفهم البنائي للنص القرآني لدى القدماء، بعدم الوعي الثقافي الكافي، وهو وعي يمثل منظومة مكونة من (ثقافة فنية ونفسية واجتماعية) وهذا ما لم يتوفر إلاّ في العصور الحديثة .

والباحث يتحفظ على الظاهرمن حديث البستاني، بشأن غياب الفهم النصي عند المتقدمين وعلى تعليله معًا ؛ ذلك لسببين :

الأول : لقد مر بنا أنّ التحليل الذهني لعملية الإدراك والاستجابة، تعد أهم الأصول التي انطلق منها ، الدكتور محمود البستاني، لتشييد نظريته البنائية ، وأنّه عوَّل في هذا السياق على معطيات المدارس النفسية الحديثة ، وظهر من طيات كلامه أنّ موقف هذه المدارس بشأن الإدراك وبعض تفصيلاته ، يأتي معززًا أو كاشفًا عن تجاربنا اليومية ، أي أنّ تلك

المعطيات النفسية لم تصنع شيئًا من عدم ، بقدر ما مارست دور الإضاءة والكشف عن واقع حياتي، يتمثله الإنسان في سلوكه من دون أن يتمكن في حالات كثيرة من التعبير عنه، تعبيرًا علميًّا ، أو أن يقدم تحليلًا تخصصيًا في هذا الصدد، ومن هنا فلا يصلح ما ذكره الدكتور البستاني، تعليلًا لغياب الفهم البنائي المفترض عند القدماء واحتياج ذلك إلى ثقافة نفسية واجتماعية، بعد افتراض أنّ ما أثبتته التجارب النفسية هو وبحسب البستاني نفسه، تجربة حياتية معيشة .

الثاني: إنّ القدماء قد توفروا وعن طريق (علم المناسبة) على الفهم البنيوي للنص، وأنّهم قدموا في هذا الصدد تنظيرًا (وإن لم يكن عامًا، شاملًا)، مَثل مظلة منهجية للتعاطي مع النص القرآني، فقد عرفوا التناسب بأنَّه " ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة ، متسقة المعاني، منتظمة المباني "[1]، ولخصوا فائدة علم المناسبة بجعل " أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم، المتلائم الأجزاء "[2].

وفي السياق ذاته ذكروا الآليات الإجرائية المتبعة في البعد الشكلي والمضموني ، بما يفضي إلى ارتباط مكونات النص .

بقي أن نقول: إنّ ما ذكره الدكتور البستاني، في مسألة عدم تعاطي المتقدمين مع آيات القرآن الكريم، تعاطيًا يقوم على أساس الوحدة العضوية لها، ليس أمرًا حادثًا ولا جديدًا بل قديم قدم مبحث (المناسبة) فقد شكا الكثير من المشتغلين في حقل الدراسات القرآنية، من إهمال هذا المنهج بذريعة أو أخرى، وهو ما أكده الزركشي (تمثيلًا لا حصرًا) في تنويهه على أهمية بحث الترابط بين الآيات، حين قال : " وهذا النوع يهمله بعض المفسرين، أو كثير منهم، وفوائده غزيرة"[3]، مبررًا عدم الاعتناء؛ بدقة هذا النوع من البحث وعمقه .

(١) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد الزركشي ،١ / ٣٦.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) ينظر، البرهان في علوم القرآن، ١ / ٣٦.

ولكن إن كان للمتقدمين عذر في شكايتهم باعتبار قربهم من زمان تأسيس (علم المناسبة) ومحدودية التعويل عليه، فما هو عذر المتأخرين (ليس البستاني أولهم ولا آخرهم) في نفيهم التناول العضوي عمن سبقوهم أو عاصروهم، وهم يرون كثرة المحاولات البحثية قديمًا وحديثًا، بهدف التدليل على وحدة النسق القرآني وتلاحم أجزائه واتصال موضوعاته؟

يعتقد عبد الحميد الفراهي (١٨٦٣ – ١٩٣٠ م) أنَّ منهجه الذي ضمنه كتابه (دلائل النظام)، في بيان الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم " لم يسلكه أحد من المتقدمين، فهؤلاء عنوا بالمناسبات التي لا تخرج عن التناول التجزئي للقران والبحث عن ترابط الآيات، ولم ينتقلوا من الأجزاء إلى الكل ، ويتعرفوا على النكتة التي بها ينتظم الكلام من أوله إلى آخره بحيث يصير شيئا واحدا، فالكلام بنظامه لا بمحض أجزائه ".

الأمرنفسه، نجده عند سعيد حوى، في بيان خصائص تفسيره، حيث يقول : " إنّ الخاصية الأولى لهذا التفسير وقد تكون ميزته الرئيسية أنه قدم لأول مرة – فيما أعلم – نظرية جديدة في موضوع الوحدة القرآنية ، وهو موضوع حاوله كثيرون وألفوا فيه ، ولكن أكثر ما شغلهم فيه هو الحديث عن مناسبة الآية في السورة الواحدة ، أو مناسبة آخر السورة السابقة لبداية السورة اللاحقة ولم يزيدوا على ذلك – فيما أعلم " [١]

وفي الاتجاه نفسه، يأخذ سيد قطب على أهل التفسير عدم توصلهم إلى قاعدة شاملة في الترابط المعنوي بين الآيات ، وهو يرى أنَّ مجهودات المتقدمين في التفسير ومباحث البلاغة والإعجاز" وقفت عند حدود عقلية النقد العربي القديمة، تلك العقلية الجزئية التي تتناول كل نص على حدة، فتحلله وتبرز الجمال الفني فيه –إلى الحد الذي نستطيع– دون أن تتجاوز هذا إلى إدراك الخصائص العامة في العمل الفني كله "[٢] .

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى ، ١ / ٢٢.
(٢) في ظلال القرآن، القاهرة، سيد قطب، ١ / ٢٩.

يرجع بعض الدراسين، هذا الأمر إلى أحد سببين أو هما معًا:

" الأول: جهل كثير من الدارسين الجدد بنتاج سابقيهم متقدمين ومتأخرين، نتيجة قصور في البحث والتنقيب، فالذي ينبغي أن يكون على بال من المبتكر لمنهج جديد ، أو المبدع لعلم ما أن ينظر فيمن سبقه من العلماء، هل سبقه أحد بمثل ما قال أو شبيهه، وإلا فإنّ ادعاء الجدة يصبح ، قولا من غير دليل ولا حجة ، وإنّما هو شهوة اكتساب الأولية.

الثاني: وجود قصور كبير في الدراسة التوثيقية لما استجد من علوم ومناهج حول القرآن وتفسيره، إذ نفتقد الدراسات الجامعة التي تعتني بتصنيف هذه المعارف، وإدخالها في الإطار النظري لعلوم القرآن " [1].

والباحث يستبعد أن يكون (الدراسون الجدد) بهذا الوصف الذي قدمه صاحب (منهج التفسير الموضوعي) فإنَّ أغلبهم من أساتذة علوم القرآن ومفسري الكتاب العزيز، وفيهم من جمع بين صفة التفسير وصفات أخرى اكتسبها من دراسته الواسعة للآداب القديمة والمعاصرة ، وألموا بتطور المناهج المعاصرة وانتهائها إلى القول بالوحدة العضوية في النص الأدبي وتردد صدى ذلك في واقعنا الإسلامي، وفيهم من عاش طورًا من حياته في بلدان، شهدت ظهور هذا اللون من الدراسات القرآنية ، ومن هنا فلا نجد الاعتذار عنهم بعدم الإلمام بجهد السابقين والمعاصرين تامًا، فإنَّ ذلك قد يصدق (جزئيًا) أمّا أن يصل إلى الحد الذي يتم فيه، نفي المثل والنظير عن دراساتهم، فأمر فيه نظر واضح.

وفي السياق ذاته ، نستبعد أيضًا أن يكون هؤلاء الدراسون ، قد تعمدوا إغفال جهود من سبقهم، بهدف اكتساب أوليّة أو تسجيل (براءة اختراع) في تناول النص القرآني؛ فإنَّ هذا أمر يسهل اكتشاف بطلانه وتزييفه بأدنى جهد وأيسر مؤونة، ولا أظن عاقلًا يجترئ على الإقدام عليه !

وأحسن اعتذار، يمكن أن نقدمه هو أن نقول : أغلب الظن أنَّ الباحثين، في (الوحدة القرآنية) حين يثبتون الجدة لمحاولاتهم وينفون علمهم وجود مشابه لها، إنما يتحدثون عن

(١) منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، دراسة نقدية، سامر عبد الرحمن رشواني، ٣١٥.

الجانب التطبيقي لعملهم، ومدى نجاعته في إماطته اللثام عن الوحدة المشار إليها ، فسعيد حوى مثلًا، لم ينف عن السابقين، محاولاتهم تجلية الوحدة القرآنية، كيف ؟ وهو يصرح مثلما رأينا بأنَّ موضوع الوحدة، قد حاوله كثيرون بيد أنّهم لم ينجحوا لانشغالهم في بحث المناسبات بين آيات السورة الواحدة أو مناسبة نهاية السورة السابقة لبداية السورة اللاحقة، وهذا الموقف منه لا يعني أكثر من تقييم محاولات سابقيه.

وهكذا نجد البستاني في حديثه عن مقاربات القدماء لموضوعة الوحدة القرآنية، فقد عبر عنها بالدراسات المتناثرة ثم أخذ عليها أنّها " لم تتطرق إلى سور القرآن جميعًا، كما لم يتوفر بعضها على دراسة السورة بأكملها ، فضلا عن أنّ بعضها الثالث لم يتناول جميع الخطوط التي ترتبط بها شبكة السورة الكريمة بقدر ما اقتصرت على واحد أو أكثر من الخطوط "[1].

ومن الواضح أنّ الدكتور البستاني، يقيّم تلك الدراسات وفقًا لمنهجه بما هو بناء هندسي للنص، يتكون من مستويات وتنتظمه عناصر وأدوات، تتظافر كلها في سبيل تحقيق وحدة النص وكلية معناه ، فهو يسجل هنا ، وجود دراسات عضوية للنص القرآني، لكنه يراها مبتلاة بالمحدودية إمّا من جهة عدم تناولها السور القرآنية جميعًا ، أو عدم إتيان السورة بأكملها ، وبين هذا وذاك، يبقى عدم تحليل حمولات النص وتشريح جميع مستوياته هو الغالب في مثل هذه المقاربات مثلما هو مشاهد في الدراسات القديمة.

وفيما خص تناول المعاصرين للنص القرآني، يسجل البستاني أنّ بعض تلك المحاولات، ورغم مقاربتها النص القرآني، وفقًا لمعطيات الدرس البلاغي الحديث إلّا أنّها وفي روحها، ترجع إلى المقاربة التجزيئية رغم تدرعها بمناهج حديثة، فقد انصرفت عنايتها " امّا إلى عناصر جديدة مثل العنصر القصصي ، أو على التصورات الجديدة لعنصر الصورة الفنية، أو العنصر اللفظي أو الايقاعي، وهي جميعاً لا تجسد ألا الدراسة التجزئية التي تتناول القصة، أو الصورة أو الايقاع بنحو منفصل عن عمارة السورة الكريمة "[2]، ولا يغفل الدكتور

(١) محمود البستاني، في عمارة السورة القرآنية، (٥/ ٨/ ٢٠١٩ م)، استرجعت بتاريخ ١٠ / ٢/ ٢٠٢٣م من https://www.quranicthought.com/ar/books/

(٢) المصدر نفسه.

البستاني، المقاربات الحديثة التي تستجمع شرائط (المقاربة البنائية) المتكاملة عبر تناول (عمارة السورة) ، لكن مع ذلك، تبقى مشكلة هذه المحاولات في عدم تقديمها دراسة شاملة لجميع السور القرآنية[1] .

إنَّ كلمات البستاني هذه، تعكس للمتلقي إلمام الرجل (ولو بصورة إجمالية في الحد الأدنى) بالدراسات القديمة والحديثة في موضوعة الوحدة القرآنية ، وبالضمن إدعاءه أنَّ دراسته تأتي في طريق تلافي (القصور) الذي ابتليت به تلك الدراسات ، وهو قصور نوعي في غالبه .

إنَّ ميزة الدكتور محمود البستاني في مقاربته البنائية مضافًا إلى تفصيله النظري والمنهجي، تكمن في دراسته النص القرآني بما هو (عمارة أو هيكل) بنائي، يتألف من طبقات وتشترك فيه عناصر شتى، تتلاقى جميعها لتكوين وحدته العضوية وإنتاج معناه العام، تمامًا مثلما تلتحم أجزاء البنية ومكونات البناء لتشكيل هيكل بنائي متكامل ، فيما توزعت الدراسات السابقة والمعاصرة في غالبيتها بين بحث تناسب الآيات وترابطها من دون أخذ المعنى العام والغرض الرئيس للسورة بنظر الاعتبار، وبين تناول الوحدة العضوية للآيات والمعنى الكلي للنص، لكن مع الاقتصار على الترابط الدلالي والشكلي دون أن تفرد مساحة معتدًا بها، لبحث مستويات النص وتجانس عناصره وادواته وتلاحمها في سبيل تحقيق المعنى العام، وبالضمن الوحدة العضوية للنص، أوأنّها توفرت على ذلك لكنها لم تأت على النص القرآني كله .

نعم مما يؤخذ على البستاني، إغفاله السير التاريخي لبحث الوحدة القرآنية وتطوره، وعدم عقده (بحثًا مقارنًا) يقيِّم عن طريقه هذه المحاولات ويقيس محاولته إليها وتفردها عنها، اللهم إلّا ما نراه من كلمات عامة متناثرة هنا أو هناك، يتحدث فيها عن السر المستسر وراء محاولته البنائية، فضلًا عن أنّ بعض كلماته، قد توهم المتلقي بانّه ينفي أي مجهود

(١) ينظر، في عمارة السورة القرآنية، (٥/ ٨/ ٢٠١٩ م)، استرجعت بتاريخ ١٠ / ٢/ ٢٠٢٣ م من https://www.quranicthought.com/ar/books

سابق للمتقدمين واللاحقين، في تجلية وحدة القرآن العزيز ولو على مستوى ترابط الآيات واتصال الأجزاء .

الملاحظة الخامسة : لا شك في صدق مؤدى عبارة الدكتور محمود البستاني، عن عدم تحقق الغرض الذي يستهدفه النص، بالشكل المطلوب في ظرف كون النص الأدبي، مطروحًا بشكل عشوائي، بيد أننا نتساءل : هل من الضروري أن يكون للنص غرض واحد، تتآزر جميع مكوناته لتحقيقه؟ أو أنّه يمكن أن يكون للنص أغراض متعددة، يصدق معها عدم العشوائية على النص الأدبي؟

ثم ما المراد بالعشوائية ؟ وهل هي صفة كل نص لا يتميز بالوحدة العضوية ؟

أحسب أنّ البستاني، وهو الناقد والأديب المتضلع، يعرف جيدًا أنّ التراث الأدبي العربي القديم وفي مساحة كبيرة جدًا منه، لا ينطوي على هذه الصفة رغم انَّه في الوقت ذاته، متعدد الأغراض ، والدكتور البستاني نفسه، تفهم غياب (الوحدة العضوية) عن جميع أدوار الشعر؛ "نظرًا لتطلب ذلك مهارة ثقافية لم تسمح بها تجارب الجاهلين، بل إنَّ الشعر العربي في جميع عصوره الموروثة لم يكن يخبر مثل هذه التجربة الفنية إلّا نادرًا سواءً كان ذلك في مستوى الإبداع الفني ، أو العمل النقدي، كل ما يمكن رصده في هذا المجال هو أنَّ نمطًا عاديًّا من البناء هو الذي خبره الأدب الموروث ألا وهو حسن الاستهلال والتخلص والختام"[1] ، فضلاً عن انتقاد البستاني، البلاغة القديمة وهي قواعد الأدب، وأخذه عليها، التناول الجزئي للنص على مستوى المفردة أو الجملة أو الفقرة[2]، ووصم النقاد القدماء بافتقاد الثقافة اللازمة لدراسة النص بنائيًّا ، وهي ثقافة- بحسبه- نتاج العصور الحديثة، وفي ضوء ذلك: هل سنسمح لأنفسنا والحال هذا، ان ننعت هذا التراث الواسع، بالعشوائية؟!

لا احسب ان الدكتور البستاني، يرضى بهذه النتيجة.

(١) محاضرات في علوم القرآن، محمود البستاني، ٣٩.
(٢) ينظر، البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلامي ، محمود البستاني ، ١٠.

ومع كل التحفظات التي سجلناها على أصول (البنائيَّة) بنسختها (البستانيَّة) إلا أنَّه، يمكن القول بأنَّ أكثر تلك التحفظات، تتصل بالجانب النظري والصياغة الفكريَّة، وهو أمر يمكن تجاوزه فيما لو اقتادنا التأصيل العملي إلى ما يخالفه أو ثبت بالدليل نجاعة المنهج الذي انتهجه البستاني في تقديم رؤيته البنائية من ناحية عملية.

وبكلمة أخرى : إنَّ التحفظات التي أبديناها، لا تؤدي إلى إلغاء قيمة الأصل النظري بالمرة بل هي وفي أحسن الفروض قد تسلب يقينيته ولكن مع ذلك يبقى أمرًا محتملًا في نفسه، مما يعني إمكان التعويل عليه من الناحية التطبيقية، فهو باب قد فُتح ويمكن للباحث أن يلجه وينظر فلعل ظنَّه يصدق في ما أفاده الأصل النظري، وهذا ما نحسب أنَّ الدكتور محمود البستاني قد فعله، حين ولج هذا الطريق فقدَّم موسوعة تفسيرية على أساس منهجه البنائي، تمثل قيمة إبداعية متميزة، وتكشف بما لا لبس فيه عن حضور (الوحدة البنائية) في النص القرآني العزيز، ولتقييم هذه التجربة التأصيلية، مجال آخر.

النتائج

١- مقاربة الدكتور محمود البستاني البنائية، تكاد تكون الوحيدة من بين المقاربات الموضوعية التي تتكئ على تأصيل نظري، يتميز بالشمولية والاستيعاب، ويجمع بين التراث ومخرجات العلوم الحديثة والواقع المعيش.

٢- البنائية منهج نسقي داخلي، يدرس النص من الداخل وينظر إليه على أساس أنه وحدة متصلة، ومنظومة علاقات متشابكة، مكتفيًا بذاته، ومنطويًا على قوانين داخلية تنتظم أجزاءه وعناصره وأدواته، ولا يصار إلى الاستعانة بخارج النص إلا بالمقدار الذي يتطلبه سياق الموضوع الذي يطرحه النص

٣- لا بد أن يتحلى النص النموذج عند الدكتور محمود البستاني، بالوحدة العضوية، وأن يكون للنص، معنى كليٌّ أو هدفٌ عامٌ يريد تحقيقه مضافًا إلى اعتماده أساليب محددة تاخذ بنظر الاعتبار قوانين الاستجابة الذهنية.

٤- تأثر الدكتور محمود البستاني بمعطيات المدارس النفسية لائح وبوضوح، ولم يقتصر اعتماد البستاني على تلك المعطيات في صياغة مقاربته البنائية بل في نقده للبلاغة القديمة ومحاولة إعادة رسم ملامح بلاغية جديدة، يتغير معها التعاطي مع النص القرآني، بما يحقق كليَّة المعنى وترابط مكونات النص بمستوييها الشكلي والمضموني.

٥- لا تخلو أصول البستاني من تحفظات لكن تلك التحفظات لا تسقط قيمة المقاربة البنائية، فإنَّ التحفظات التي أبديناها، لا تؤدي إلى إلغاء قيمة الأصل النظري بالمرة بل هي وفي أحسن الفروض قد تسلب يقينيته ولكن مع ذلك يبقى أمرًا محتملًا في نفسه، مما يعني إمكان التعويل عليه من الناحية التطبيقية ، وهذا ما فعله الدكتور محمود البستاني ، حين ولج هذا الطريق فقدَّم موسوعة تفسيرية على أساس منهجه البنائي، تمثل قيمة إبداعية متميزة، وتكشف بما لا لبس فيه عن حضور (الوحدة البنائية) في النص القرآني العزيز.

٦- ميزة الدكتور محمود البستاني في مقاربته البنائية فضلًا عن تفصيله النظري والمنهجي، تكمن في دراسته النص القرآني بما هو (عمارة أو هيكل) بنائي، يتألف من طبقات وتشترك فيه عناصر شتى، تتلاقى جميعها لتكوين وحدته العضوية وإنتاج معناه العام، تمامًا مثلما تلتحم أجزاء البنية ومكونات البناء لتشكيل هيكل بنائي متكامل، فيما توزعت الدراسات السابقة والمعاصرة في غالبيتها بين بحث تناسب الآيات وترابطها من دون أخذ المعنى العام والغرض الرئيس للسورة بنظر الاعتبار، وبين تناول الوحدة العضوية للآيات والمعنى الكلي للنص، لكن مع الاقتصار على الترابط الدلالي والشكلي دون أن تفرد مساحة معتدًا بها، لبحث مستويات النص وتجانس عناصره وادواته وتلاحمها في سبيل تحقيق المعنى العام، وبضمن الوحدة العضوية للنص، أوأنّها توفرت على ذلك لكنها لم تأت على النص القرآني كله.

المصادر والمراجع

١. الإسلام والفن، البستاني، محمود،١٤١٣ هـ/ ١٩٩٢م، بيروت- مجمع البحوث الإسلامية للدراسات والنشر.

٢. الأصل في التفسير، حوى، سعيد، ١٤٢٤هـ، القاهرة- دار السلام.

٣. البرهان في علوم القرآن، الزركشي ، بدر الدين،١٩٥٧م، القاهرة- دار إحياء الكتب العربية.

٤. البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الاسلامي، البستاني، محمود، ١٤٢٤ هـ/ ١٣٨٢ هـ ش ، قم – دار الفقه للطباعة والنشر.

٥. التحقيق في كلمات القرآن الكريم ، المصطفوي، حسن، ١٣٨٥ هـ، طهران- مركز نشر آثار العلامة المصطفوي.

٦. التدبر الترتيبي في القرآن، إلهي زاده، محمد حسين،٢٠١٤م، مشهد- المؤسسة الثقافية للتدبر في القرآن والسيرة.

٧. التفسير البنائي للقرآن الكريم، البستاني، محمود، ١٤٢٣هـ، مشهد – مجمع البحوث الإسلامية.

٨. التفسير البنائي، قضايا إسلامية معاصرة، البستاني، محمود ، لبنان – بيروت – العدد الرابع ، ١٩٩٨م، صص٢٥-٥٧

٩. تفسيرنظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، الفراهي، عبد الحميد، ٢٠٠٨م، ط١، الهند- الدائرة الحميدية.

١٠. الجمع بين القراءتين: قراءة الوحي وقراءة الكون، العلواني، طه جابر، ٢٠٠٦م ، القاهرة- مكتبة الشروق الدولية.

١١. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين الالوسي ، ١٤١٥ هـ ، بيروت – دار الكتب العلمية.

١٢. رؤية الأشياء كما هي نظرية الإدارك ر.سيل، جون، ٢٠١٨ م، – الكويت – المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

١٣. العدل الإلهي، مطهري، مرتضى، ١٤٣٦ هـ ، بيروت – دار الإرشاد.

١٤. علم النفس العام، سالم عبدالله الفاخري،٢٠١٨م، عمان– مركز الكتاب الاكاديمي.

١٥. علم النفس المعرفي، رافع النصير الزغول، عماد عبد الرحيم الزغول، ٢٠٠٨ م، عمان– دار الشروق للنشر والتوزيع.

١٦. فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب الطيبي، شرف الدين ،١٤٣٤ هـ / ٢٠١٣م، – جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم.

١٧. الفهم المتجدد لآيات الكتاب المجيد في ضوء منهج التفسير البنائي ، البستاني، محمود،٢٠٠٩.

١٨. في النظرية النقدية ،البستاني، محمود، ١٩٧٥ م، بغداد – وزارة الإعلام.

١٩. في ظلال القرآن، قطب، سيد، ١٤١٢ هـ، ط١٧، القاهرة.– دار الشروق.

٢٠. في عمارة السورة القرآنية ، البستاني، ٢٠١٩م

٢١. القواعد البلاغية في ضوء المنهج الإسلامي، البستاني، محمود، ١٤١٤ هـ، مشهد – مجمع البحوث الإسلامية.

٢٢. لسان العرب، ابن منظور، جمال الدين، ١٤١٤ هـ ، بيروت– دار صادر.

٢٣. محاضرات في علوم القرآن ، البستاني، محمود، ٢٠٠٦م ، – بيروت– دار البلاغ للصحافة والطباعة والنشر.

٢٤. المنهج البنائي في التفسير ، البستاني، محمود، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١م، ، بيروت- دار الهادي.

٢٥. منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: دراسة نقدية، رشواني، سامر عبد الرحمن، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م، حلب- دار الملتقى.

٢٦. نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام، عبده، محمد، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠، بيروت- دار المعرفة للطباعة والنشر.

٢٧. الوحدة البنائية للقرآن المجيد، العلواني، طه جابر،١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦م، ط١،القاهرة- مكتبة الشروق الدولية.

https://www.quranicthought.com/ar/books/%D%81%9D8%9A%D%8B%9D%85%9D%8A%7D%8B%1D%8A%-9D%8A%7D%9%84D%8B%3D%88%9D%8B%1D%8A9 %D%8A%7D%84%9D%82%9D%8B%1D%8A%2D%86%9D8%9A%D%8A9/

https://www.ruqayah.net/print.php?id=383